صفحات من التاريخ الإسلامي
في الشمال الإفريقي

الدولة الفاطمية

تأليف

الدكتور علي محمد الصلابي

/http://slaaby.com



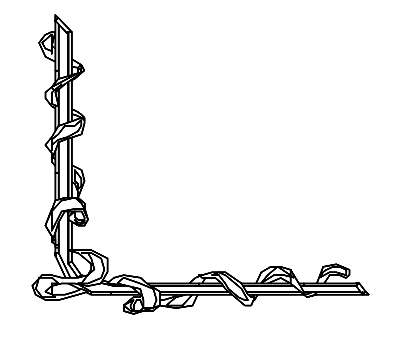


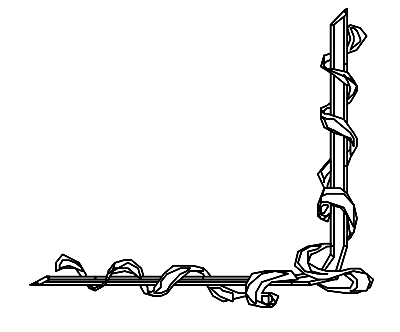
إلى أبناء الشمال الإفريقي خصوصًا وأبناء الأمة عمومًا أهدي هذا الكتاب سائلاً الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

+فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" [الكهف: 110].

المؤلف

د/ علي محمد محمد الصلابي





المقدمـــــــــة

إن الحمد لله نحمده, ونستعينه, ونستغفره,ونعوذ با لله من شرور أنفسناوم ن سيئات أعمالنا, من يهد الله فلا مضل له,ومن يضل ل فلا ه ادي ل ه,وأش هد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

+يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ" [آل عمران: 102].

+يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَـــا وَبَـــثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"

[النساء:1].

+يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا¬ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُـــمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" [الأحزاب: 70-71].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك,وعظ يم س لطانك,لك الحم د حت ى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الثالث «الدولة الفاطمية»يتحدث عن الدولة العبيدي ة «الفاطمي ة» الرافض ية من ذ نش أتها وحت ى تلاش يها ف ي رق الش يعة وخطرها على الأمة الإسلامية المجيدة,وحاول أن يس لط الأض واء عل ى أس باب نجاح الدولة الباطنية ف ي الش مال الإفريقي,ويبين حقيق ة الص راع ب ين الرافض ة وأهل السنة, ويذكر أساليب الرافض ة المتنوع ة ف ي محارب ة أه ل الس نة,وموق ف أهل السنة من ذلك, ويتطرق إلى جهود ات العظيم ة التي ق ام به ا أه ل الش مال الإفريقي للقض اء عل ى الدول ة العبيدي ة ودور العلم اء م ن أه ل الس نة ف ي التعل يم والتربية وحمل السلاح ضد الروافض.

ويسلط الأضواء على تأثير الدولة الص نهاجية ف ي نش ر معتق دات أه ل الس نة وإزالة جذور الروافض من الشمال الإفريقي كله, وخصوصاً في زمن المع ز ب ن

العبيدي ة

وأهل السنة في العراق ليؤكد على معنى مهم وهو أن تاريخ الشمال الإفريقي من تاريخ الأمة يتأثر بالأحداث التي تقع في مصر والحجاز والشام والعراق وفي غيرها, سلبًا وإيجابًا, وأننا لا نستطيع أن نفصل تاريخ الأمة بعضه عن بعض, ويركز على فقه التمكين عند القائدين العظيمين نور الدين محمود, وصلاح الدين الأيوبي من خلال سيرتهم الجهادية المباركة, وعن جهود العلماء والمربين الذين ساهموا في ظهور جيل النصر والتمكين, ويحاول أن يرسخ سنن الله في المجتمعات والدول والشعوب من خلال التفسير التاريخي للأحداث, ويشير إلى معرفة كيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية, وأهمية العلماء في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة, والحرص على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي تحقق بها النصر على الأعداء, ويتحدث عن أهمية سنة التدرج في تغيير الشعوب وبناء الدول, ويعطي للتربية الربانية أهمية قصوى في تحقيق الأهداف للأمة سواء على مستوى القادة في أخلاقهم وعلمهم وجهادهم, أو على مستوى الشعوب في استجابتها لكتاب ربها وسنة نبيها وقيادتها المخلصة.

وهذا الجهد المتواضع لم يأتِ جديدا, وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية في هذه الحقبة الزمنية التي وقعت في الشمال الإفريقي, وتأثرت بالمشرق الإسلامي في حركتها التاريخية, فإن كان خيرًا فمن الله, وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك, والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه.

وهدفى من هذا الكتاب:

1- التأكيد على أن أصول المد الإسلامي في بلادنا أصول سنية لا شيعية ولا خارجية, وإنما ما كان عليه النبي × وأصحابه.

2- تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها, وأسباب سقوطها, والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

3- الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السنة والجماعة, وتربية أبناء الأمة عليها, وكشف معتقدات الروافض التي تخالف القرآن الكريم, وسنة سيد المرسلين × وإجماع العلماء الراسخين.

4- التعريف ببعض القادة الربانيين في المغرب, كالمعز بن باديس, وتميم بن المعز, وفي المشرق كنور الدين محمود, وصلاح الدين الأيوبي, حتى تستفيد من سيرهم العطرة أجيال المسلمين التي تنشد النصر والتمكين لدين الله تعالى.

إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحـ ـاث المنبثقة ع ن عقيدة صحيحة وتصـ ـور سـ ـليم بعيدًا عن سمـوم المستشرقين وأفكار العلمـ ـانيين الـ ـذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

أما خطة الكتاب فقد قمت بتقسيمه إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: الدولة العبيدية في الشـ ـمال الإفريقـ ـي ويشـ ـتمل علـ ـى خمسـ ـة مباحث:

المبحث الأول: الشيعة في اللغة.

أولاً: تعريف الشيعة لغة واصطلاحًا.

ثانيًا: تعريف الرافضة.

ثالثًا: سبب تسميتهم بهذا الاسم.

رابعًا: بداية التشيع.

المبحث الثاني: التعريف بأهم فرق الشيعة.

أولاً: النصيرية- عقائدهم.

ثانيًا: الشيعة الاثنى عشرية.

- استمرار الاثنى عشرية في العصر الحاضر.
- الإمام الشيعي في العصر الحالي ودولته التي أقامها.
- تجربة الشيخ موسى جار الله.

ثالثًا: الشيعة الإسماعيلية.

أ- خطر المذهب الباطني على الأمة.

ب- عقائد الباطنية الفاسدة.

المبحث الثالث: داعية الباطنية في الشمال الإفريقي.

المبحث الرابع: عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي.

المبحث الخامس: عقيدة أهل السنة والجماعة في المهدي.

- اسمه وصفاته.
- مكان خروجه.

أولاً: تواتر أحاديث المهدي.

ثانيًا: المنكرون لأحاديث المهدي والرد عليهم.

الفصل الثاني: الصراع بين الدولة العبيدية وأهالي الشمال الإفريقي.

ويشمل على ثمانية مباحث:

المبحث الأول: ثورة قبيلة هوارة في طرابلس.

المبحث الثاني: زحف العبيديين على برقة.

المبحث الثالث: صلاح الدين الأيوبي.

أ- القاضي الفاصل.

- وفاته.

ب- وفاة السلطان الناصر صلاح الدين.

ج- الملامح الرئيسية في شخصية صلاح الدين.

د- من أروع المراثي في صلاح الدين.

هـ- من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين.

ثم نتائج البحث.

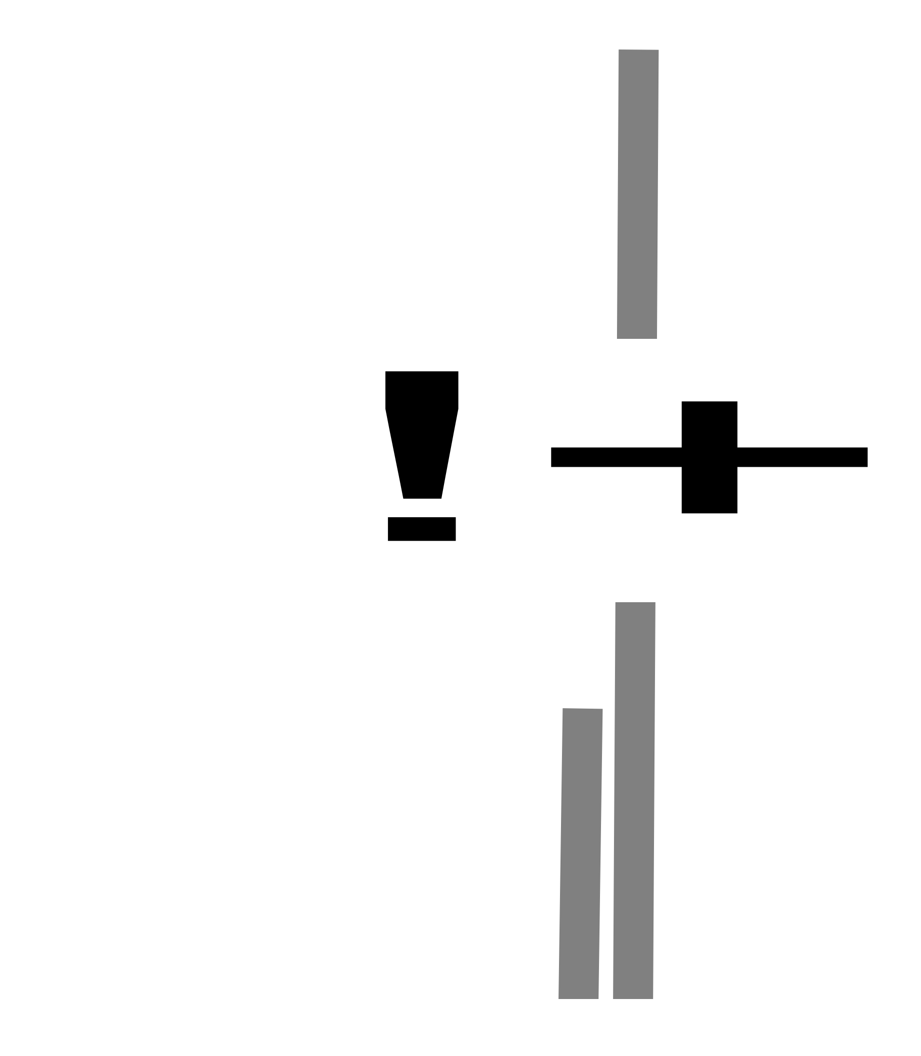
وأخيرًا:

أرجو من الله تعـالى أن يكـون عمـلاً خالصًا لوجهه الكـريم, وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي, وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

سبحانك اللهم وبحمدك, أشهد أن لا إله إلا أنت, أستغفرك وأتوب إليك, وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

د/ علي محمد محمد الصلابي



فى الشمال الإفريقى

المبحث الأول
الشــــــيعة فـــي اللغــــــة

قال الجوهري رحمه الله: «شيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، ويقال: شايعه كما يقال: والاه من الولي، وتشيع الرجل: ادعى دعوى الشيعة، وتشايع القوم: صاروا شيعًا، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع، وقوله تعالى: +كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ" [سبأ:54] أي بأمثالهم من الأمم الماضية[1].

وجاء في المصباح المنير: «والشيعة: الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت الشيعة نبزًا أي: لقبًا لجماعة مخصوصة، والجمع: شِيَع مثل سِدْرة وسِدَر, والأشياع جمع الجمع، وشيّعت رمضان بست من شوال أتبعته بها»[2].

فالشيعة: من حيث مدلولها اللغوي تعني: القوم والصحب والأتباع والأعوان, وقد ورد هذا المعنى في بعض آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى: +فَوَجَــدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ" [القصص:15].

وقال تعالى: +وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ" [الصافات:83].

فلفظ الشيعة في الآية الأولى تعني القوم, وفي الثانية تشير إلى الأتباع الذين يوافقون على الرأي والنهج ويشاركون فيهما[3].

أولاً تعريف الشيعة اصطلاحًا:

كلمة «شيعة» ذات معنى اصطلاحي مستقل، حيث أطلقت على جماعة اعتقدوا أن الأمامة ليست من المصالح العامة التي ترجع إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم, بل إنها ركن الدين وقاعدة الإسلام, ولا يجوز لنبي إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة, بل يجب عليه أن يعين الإمام للأمة[4].

فقد قال أبو الحسن الأشعري في صدد ذكره للشيعة: إنما قيل لهم الشيعة: لأنهم شايعوا عليًا رضي الله عنه ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله ×»[5].

---

(1) الصحاح للجوهري, ولسان العرب: «شيع».
(2) المصباح المنير: «شيع».
(3) المصباح المنير: ج1- 329.
(4) انظر: مقدمة ابن خلدون, ص(196،197).
(5) مقالات الإسلاميين (ج65/1).

وقال عبد الرحمن بن خلدون: «الشيعة لغة هم الصحب والأتباع, ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه -رضي الله عنهم- ومذهبهم جميعًا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة, بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصومًا من الكبائر والصغائر, وإن عليًا هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم, لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة, بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة»[1].

ثانيًا: تعريف الرافضة:

الرفض لغة: الترك, وقد رفضه يرفضه رفضًا.

قال الأصمعي: «سموا بذلك لتركهم زيد بن علي τ»[2].

فالرفض في اللغة معناه الترك والتخلي عن الشيء.

وأما في الاصطلاح: فهم قوم من الشيعة سموا بذلك؛ لأنهم تركوا زيد بن علي, قال الأصمعي: «كانوا بايعوه ثم قالوا له: ابرأ من الشيخين نقاتل معك, فأبى, وقال: كانا وزيري جدي فلا أبرأ منهما, فرفضوه وارفضوا عنه فسموا رافضة»[3].

قال عبد الله بن أحمد -رحمه الله-: سألت أبي: «من الرافضي؟ قال: الذي يشتم ويسب أبا بكر وعمر»[4].

ثالثًا: سبب تسميتهم بهذا الاسم:

عندما خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم على هشام بن عبد الملك كان في جيشه من يشتم أبا بكر وعمر فمنعهم, فرفضوه, ولم يبق معه إلا مائتا فارس, فقال لهم – أي زيد بن علي-: رفضتموني, قالوا: نعم, فبقي عليهم هذا الاسم[5], وكان ذلك في سنة ثنتين وعشرين ومائة. وقال ابن كثير – رحمه الله- في صدد بيانه ما حدث في هذه السنة: «فيها كان مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب, وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة أمرهم في أول هذه السنة بالخروج والتأهب له, فشرعوا في أخذ الأهبة لذلك, فانطلق رجل يقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب

(1) مقدمة ابن خلدون, ص (196،197).
(2) الصحاح للجوهري, (ج1078/2), ولسان العرب (ج157/7): «رفض».
(3) لسان العرب (ج157/7).
(4) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي, ص(165).
(5) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين, ص (52).

العراق فأخبره –وهو بالحيرة يومئذ- خبر زيد بن علي هذا، ومن كان معه من أهل الكوفة، فبعث يوسف بن عمر يطلبه ويلح في طلبه، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له: ما قولك يرحمك الله في أبي بكر وعمر؟ فقال: غفر الله لهما، ما سمعت أحدًا من أهل بيتي تبرأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيرًا، قالوا: فلم تطلب إذًا بدم أهل البيت؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرًا، قد ولوا فعدلوا وعملوا بالكتاب والسنة، قالوا: فلم تقاتل هؤلاء إذًا؟ قال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، وإني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ×، وإحياء السنن وإماتة البدع، فإن تسمعوا يكن خيرًا لكم ولي، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل، فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه، فلهذا سموا الرافضة من يومئذ»[1].

وبهذا يتبين سبب تسميتهم بالرافضة، لرفضهم زيد بن علي الذي منعهم من سب الشيخين رضي الله عنهما، وأصبحت كلمة الرافضة تطلق على كل من غلا في مذهب الشيعة وأجاز الطعن في الصحابة.

رابعًا: بداية نشأة التشيع:

تذكر كتب التاريخ أن أول من زرع فكرة التشيع في الأمة رجل يهودي يقال له: عبد الله بن سبأ، أظهر الإسلام للطعن فيه، وكان ذلك زمن الخليفة الراشد ذي النورين عثمان بن عفان ؓ، وتنقل ابن سبأ بين المدينة والبصرة والكوفة ومصر والشام، والتف حوله المفسدون والحاقدون من المنافقين والجهال بحقيقة الدين.

ونشط ابن سبأ المعروف بابن السوداء في بث فكرتين أساسيتين لأهدافه اليهودية هما:

الأولى: دعوته إلى اعتقاد رجعة النبي ×، وكان يقول: «عجبًا ممن يزعم أن عيسى سيرجع ويكذب بأن محمدًا سيرجع، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص:85].

الثانية: دعوته إلى اعتقاد أن لكل نبي وصيًا، وعلي وصي محمد، ومحمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ومن أظلم ممن يمنع وصية رسول الله × ووثب على حق وصيته وتناول أمر الأمة».

وأرسل ابن سبأ أصحابه وأتباعه في الأمصار ليكتبوا ظلمًا وزورًا وبهتانًا للطعن في الولاة والخليفة، وبثها بين المسلمين وحثهم على الظهور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يلتف حولهم العوام، وزوروا رسائل نسبوها

---

(1) البداية (ج370/9،371).

إلى عثمان τ للدس والوقيعة بين الأمة وخليفتها وولاتها.

ج الأمصار وهو السبئية واستجاب أهل البصرة والكوفة ومصر لأهدافه القريبة, وكان من نتائج دسائسه قتل الخليفة الراشد عثمان τ بغير حق ظلمًا وعدوانًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأول من أحدث الرفض والغلو المذموم, قال: أصل الرفض من المنافقين والزنادقة فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق وأظهر الغلو في علي بدعوى الإمامة والنص عليه وادعى العصمة له»[1].

وذكر أيضًا أن «ابن سبأ المنافق الزنديق أراد فساد دين الإسلام, وأراد أن يصنع بالمسلمين ما صنع بولس بالنصارى, لكن لم يتأت له ما تأتى لبولس لضعف النصارى وعقلهم؛ فإن المسيح عليه السلام رفع ولم يتبعه خلق كثير يعلمون دينه, ويقومون به علمًا وعملاً, فلما ابتدع بولس ما ابتدعه من الغلو في المسيح اتبعه على ذلك طوائف وأحبوا الغلو في المسيح, فقام أهل الحق فخالفوهم وأنكروا عليهم فقتلت الملوك بعضهم, وداهن الملوك بعضهم, وبعضهم اعتزلوا في الصوامع والأديرة, وهذه الأمة ولله الحمد لا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق, فلا يتمكن ملحد ولا مبتدع من إفساده بغلو أو انتصار على الحق, ولكن يضل من يتبعه على ضلاله»[2].

ولوضوح خبثه وكيده وحقده على الإسلام والمسلمين لم يذكره أحد من أهل الإيمان بخير, بل وصفوه بأنه أول من سن لأهل الخذلان النيل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما, ووصفوه بالخبث والكذب والنفاق والزندقة وبأنه ضال مضل.

ذكر ابن حجر من طريق أبي إسحاق الفزاري أن سويد بن غفلة دخل على علي في إمارته فقال: إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر ويرون أنك تضمر لهما مثل ذلك, فقال علي: ما لي ولهذا الخبيث الأسود, ثم قال: معاذ الله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل, ثم أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيره إلى المدائن, وقال: لا يساكنني في بلدة أبدًا, ثم نهض إلى المنبر حتى اجتمع الناس, ثم أثنى على الشيخين ثناءً طويلاً, وقال في آخره: «ألا ولا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفترى»[3].

وتذكر بعض الروايات أن عليًا هم بقتله ودعا بالسيف فكلم فيه فقال: لا يساكنني ببلد أنا فيه, فسيره إلى المدائن[4].

وذكر ابن عساكر بإسناده إلى أبي الجلاسي قال: سمعت عليًا يقول لعبد الله السبئي: «ويلك, والله ما أفضى إلي بشيء كتمه أحد من الناس وقد سمعته يقول:

---

(1) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (ج435/4).
(2) منهاج السنة (ج261/3).
(3) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص (100،101).
(4) تاريخ دمشق لابن عساكر (ج7/34).

«إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابًا» وإنك لأحدهم»[1].

فعلي τ حكم على ابن سبأ بأنه خبيث وهم بقتله إثر تراجعه عن قتله ونفاه إلى المدائن, وبين بأنه أحد الدجالين.

وقال الحافظ الذهبي في شأن عبد الله بن سبأ: من غلاة الزنادقة ضال مضل أحسب أن عليًّا حرقه بالنار, وزعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه علي فنفاه علي بعد ما هم به»[2].

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد روايات في ذمه: وأخبار عبد الله بن سبأ شهيرة في التواريخ, وليست له رواية ولله الحمد, وله أتباع يقال لهم السبئية يعتقدون إلهية علي بن أبي طالب, وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته»[3].

قلت: والحرق بالنار منهي عنه شرعًا, كان يكفي قتلهم بالسيف.

وبذلك يتضح للقارئ الكريم أن ابن سبأ اليهودي هو أول من زرع فكرة التشيع وقال بالرجعة والوصية وتلقفها عنه أتباعه وبعض من قلت بضاعتهم من العلم والهدى[4].

والدارس للتاريخ يتضح له أن الأمة في هزاتها العنيفة يكون سببها رجالاً حاقدين على الإسلام يتقنون التخفي بين أوساط المسلمين ولا يكلُّون ولا يملون من بذر ونشر أفكارهم الشيطانية المناهضة للعقيدة الإسلامية المنبثقة من كتاب الله وسنة النبي ×.

* * *

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر (ج6/34).
(2) ميزان الاعتدال (426/2).
(3) لسان الميزان (122/3،123).
(4) ابن سبأ حقيقة لا خيال (سعدى الهاشمي).

المبحث الثاني
التعريف بأهم فرق الشيعة

إن علماء الفرق صنفوا كتبًا كثيرة في فرق الشيعة, ورأيت في بحثي أن أذكر أسماءها ولا أتعرض بالتفصيل منها إلا للباطنية لكونها حكمت الشمال الإفريقي ونشرت المذهب الشيعي الإثني عشري لكونها أقامت لها دولة, والنصيرية لكونها تحكم سوريا منذ بداية السبعينيات حتى الآن, ومن فرق الشيعة التي ذكرها علماء الفرق:

السبئية, والغرابية, والبيانية, والمغيرية, والهاشمية, والخطابية, والعلبائية, والكيسانية, والزيدية الجارودية, والسليمانية, والصالحية, والبترية, وبعض هذه الفرق غالت غلوًا عظيمًا, والبعض الآخر أقل غلوًا, ومن أراد الاستزادة فليراجع مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري, والملل والنحل للشهرستاني, والفَرق بين الفِرق, لابن طاهر البغدادي.

أولاً: النصيرية:

وتعتبر هذه الفرق من غلاة الشيعة وينتسبون إلى محمد بن نصير المنيري وقد انبثقت هذه الفرقة من الاثنى عشرية «الرافضة», وغلوا في علي بن أبي طالب τ حتى ألَّهُوه.

واشتهرت هذه الفرقة بمحاربة الإسلام والمسلمين وبمناصرة النصارى الحاقدين والوقوف مع التتار المفسدين, كما اشتهرت بالإلحاد في أسماء الله وآياته وتحريف كلام الله وكلام رسوله × عن مواضعه, وإليك ما قال شيخ الإسلام عن النصيرية في إجابته عن سؤال عنهم: «الحمد لله رب العالمين, هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى, بل وأكفر من كثير من المشركين, وضررهم على أمة محمد × أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والإفرنج وغيرهم, فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه, ولا بأمر ولا نهي, ولا ثواب ولا عقاب, ولا جنة ولا نار, ولا بأحد من المرسلين قبل محمد × ولا بملة من الملل السابقة, بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها, يدعون أنها علم الباطن وليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه» إلى أن قال: «ومعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم وهم دائمًا مع كل عدو للمسلمين, فهم مع النصارى على المسلمين,

ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى النصارى على ثغور المسلمين. فهؤلاء المعادون لله ورسوله كثروا حينئذ على السواحل وغيرها، فاستولى النصارى على الساحل, ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره؛ فإن أحوالهم السيئة كانت من أعظم الأسباب في ذلك، ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد, وصلاح الدين وأتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى, وممن كان بها منهم وفتحوا أيضًا أرض مصر؛ فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد. ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم. ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارة يُسمون «الملاحدة» وتارة يسمون «القرامطة»، وتارة يسمون «الباطنية»، وتارة يسمون «الإسماعيلية» وتارة يسمون «الخرمية» وتارة يسمون «المحمرة».

وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم، ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب, إن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين, والصديق وسائر الصحابة رضي الله عنهم بدأوا بجهاد المرتدين قبل الكفار من أهل الكتاب، فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك، بل يجب على كل مسلم أن يقوم بذلك على حسب ما يقدر عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ولا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله ورسوله، والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى»(1).

وهذه الفرقة الخبيثة تسمي نفسها في العصر الحاضر بـ العلويين، وفي فترة الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام وقفت هذه الفرقة مع النصارى الغزاة الحاقدين, وما أخرج الاستعمار الفرنسي حتى مكنهم من سوريا, وعندما تقلدوا أمور البلاد انتقموا من أهل السنة انتقامًا تشيب منه الولدان, وتضع كل ذات حمل حملها من شدة التعذيب وزهق النفوس, واغتصاب العفائف الحرائر من نساء أهل السنة, والزج بهم وبالرجال في السجون, هؤلاء الحاقدون يتقلدون أمر عاصمة بلاد الشام, نسأل الله أن يعجل بأخذهم ويمكن لأهل دينه وشريعته.

وهم ينتشرون في جبال اللاذقية, وحمص في سوريا, وفي لواء الإسكندرونة وطرطوس وأذنة, وأضنة في تركيا, وفي كردستان

(1) مجموعة الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية, (ج35/149،150).

وغيرها[1].

ومن عقائدهم الفاسدة:

1- تأليه الإمام علي بن أبي طالب ويعتقدون أنه يسكن السحاب، والرعد صوته، والبرق ضحكه، ولهذا يعظمون السحاب، ومنهم من يعتقد أن عليًا يسكن في القمر أو الشمس.

2- تناسخ الأرواح: عقيدة من عقائدهم, فالذين لا يعبدون عليًّا يولدون في مرة أخرى على شكل إبل أو حمير أو الماعز ونحوها, ومن يعبد عليًّا فيتحددون عنده بحسب أعمالهم مكانه بين النجوم، ومن ينحرف منهم يولد من جديد, حتى يتطهر ويكفر عن سيئاته[2].

وغير ذلك من العقائد الفاسدة.

ولهم أعياد يحتفلون بها يقدمون فيها النبيذ ويرتكبون الفواحش وهي: عيد الغطاس, والبربارا, وهما عيدان نصرانيان, وعيد «النيروز» وهو مجوسي[3].

ويعتبرون هذه الديانة الفاسدة سرًا من الأسرار, ونساؤهم لا دين لهن مطلقًا؛ لأنهن ضعيفات العقول لا يستطعن حفظ الأسرار، والرجل لا يطلع على سر دينه إلا بعد أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره، فيلقن العقيدة النصيرية في جلسات خاصة ووسط مؤثرات شتى, وإرهاب فكري, وطقوس عجيبة، وتجد هذا في كتاب «الباكورة السليمانية» لسليمان الأذني الذي كان نصيريًا ثم تنصر, فألف هذا الكتاب, ولا زال به أهله حتى أماتوه شر ميتة بإحراقة حيًا[4].

والذي يجدر الانتباه له أن الدول النصرانية «أمريكا, بريطانيا, فرنسا.. إلخ» وإسرائيل يحرصون على طعن الأمة بهذه الخناجر المسمومة بتقويتها والوقوف معها حتى تصل إلى الحكم؛ لأن هذا المسلك من أفضل الوسائل في إضعاف أمة الإسلام +وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" [الأنفال:30] [5].

ثانيًا: الشيعة الاثنى عشرية:

ولهم أسماء كثيرة اشتهرت بين الناس منها: الإمامية؛ لأنهم يقولون بوجوب الإمامة بالنص الظاهر والتعيين الصادق.

(1) انظر: الموجز في الأديان والمذاهب, لناصر العقل والفقاري, ص(137).
(2) الموجز في الأديان والمذاهب لناصر العقل والفقاري, ص(138).
(3) المصدر السابق, ص (139).
(4) المصدر السابق, ص (140).
(5) من أراد الزيادة عن النصيرية فليراجع: تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة، والعلويون أو النصيرية للعسكري, فتاوى ابن تيمية, ج 35.

ويقول صاحب كتاب «أعيان الشيعة»: إن هذا الاسم لقب ينبز به من يقدم عليًّا عليه السلام في الخلافة وأكثر ما يستعمل للتشفي والانتقام»[1].

إلا أن الكليني الشيعي في كتابه الكافي وهو عمدة في مذهبهم أعظم كتاب عندهم ينزلونه منزلة صحيح البخاري عند أهل السنة، مما يدل على أنهم راضون بهذا الاسم واللقب ويكذبون على الله ويختلقون الإفك.

ويقولون: إن الله خلع عليهم اسم الروافض[2]. والقوم اشتهروا بالوقاحة وعدم المبالاة بالافتراء على الله وعلى خلقه.

ومن الأسماء التي اشتهروا بها اسم «الاثنى عشرية» لاعتقادهم بإمامة اثنى عشر إمامًا وهم على الترتيب:

1- أبو الحسن علي بن أبي طالب τ (ت40هـ).

2- الحسن بن علي بن أبي طالب τ (ت50 هـ).

3- الحسين بن علي بن أبي طالب τ (ت61هـ).

4- علي زين العابدين بن الحسين بن علي (ت95هـ).

5- محمد الباقر بن علي (ت 114هـ).

6- جعفر الصادق بن محمد (ت148هـ).

7- موسى الكاظم بن جعفر (ت 183هـ).

8- علي بن موسى الرضا (ت 203).

9- أبو جعفر محمد بن علي «الجواد» (ت 220هـ).

10- أبو الحسن علي بن محمد «الهادي» (ت 254هـ).

11- أبو محمد الحسن بن علي «العسكري» (ت 260هـ).

12- أبو القاسم محمد بن الحسن «المهدي» (ت 256هـ) [3].

هؤلاء هم الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة الإمامية والشيعة الاثنى عشرية يعتقدون في هؤلاء الأئمة اعتقادات كلها غلو وإطراء وضعوها من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن معتقداتهم في أئمتهم: أنهم معصومون «من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمدًا وسهوًا, كما يجب أن يكونوا معصومين من السهو والخطأ والنسيان؛ لأن الأئمة حفظة الشرع

(1) أعيان الشيعة لمحسن الأمين, (ج1/20).

(2) فروع الكافي (ج8/28) حديث رقم (6) من كتاب الروضة.

(3) انظر: عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر, ص (62،63).

والقوامون عليه حالهم من ذلك حال النبي»[1].

ووصفوا أئمتهم بصفات جاوزوا فيها المنقول والمعقول, فعلى سبيل المثال ما ذكره الكليني في كتابه الكافي المسمى عندهم (أصول الكافي) حيث إنه عقد أبوابًا فيها أحاديث من إفكهم وزورهم كلها تضمنت غلوهم في أئمتهم.

وإليك بعض عناوين تلك الأبواب:

«باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه»[2], «باب أن الأئمة هم أركان الأرض»[3], «باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله عز وجل, وأنهم يعرفونها على اختلاف أدلتها»[4], «باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة»[5], «باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل»[6], «باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم»[7], «باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شيء»[8], «باب أن الله لم يعلم نبيه علمًا إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين وأنه شريكه في العلم»[9], «باب أن الأئمة لو ستر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وما عليه»[10], «باب أن الإمام يعرف الإمام الذي يكون بعده»[11], «باب في الأئمة إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البينة»[12], «باب أنه ليس شيء من الحق في أيدي الناس إلا ما خرج من عند الأئمة وأن كل شيء لم يخرج من عندهم فهو باطل»[13].

وهكذا أخي القارئ الغلو والمعتقدات عند الاثني عشرية, إذا راجعت (مرآة العقول) للمجلسي وجدته في مستنقع الغلو والآسن حيث زعم أن عصمة الأئمة فوق عصمة الأنبياء لأنهم أعلى درجة منهم[14] وأما إمامهم المعاصر, ومرجعهم الأعلى, وآية الله العظمى من يعرف بزعيم الثورة

(1) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر, ص (51).
(2) الكافي (ج192/1).
(3) المصدر السابق (ج196/1).
(4) المصدر السابق (ج227/1).
(5) المصدر السابق (ج228/1).
(6) المصدر السابق (ج255/1).
(7) المصدر السابق (ج258/1).
(8) المصدر السابق (ج260/1).
(9) الكافي (ج263/1).
(10) المصدر السابق (ج264/1).
(11) المصدر السابق (ج276/1).
(12) المصدر السابق (ج297/1).
(13) المصدر السابق (ج299/1).
(14) انظر: مرآة العقول للمجلسي (ج289/2).

الإيرانية فيحتاج إلى شيء من البيان والإيضاح، التبس الأمر على شباب أهل السنة، بل حتى دعاتهم وبعض علمائهم الذين انخدعوا بشعارات الشيعة البراقة لكسب أهل السنة, غير مبالين بعهود أعطوها, ومواثيق ألزموا بها أنفسهم بل غدروا بهم في إيران وقتلوهم وسجنوهم، وهدموا بيوتهم، وإذا راجعت كتاب «وجاء دور المجوس»(1) رأيت العجب في أعمالهم الشنيعة وأقوالهم القبيحة حيث إن الكتاب أجاد في كشفهم وفضحهم وبين عوراتهم ووسائلهم في التستر وعلاقتهم ببقية فرق الشيعة في وقوفهم سدًا منيعًا ضد أهل السنة.

إن الاثنى عشرية لم يحترموا عقلاً، ولم يقدسوا شرعًا، ولم يلتزموا نقلاً، ولم يكرموا علماءهم ولا شيوخهم، ولم يعطوا أهل السنة الذين أعطوا لهؤلاء الأئمة من الحق والتكريم وإنزالهم منزلتهم التي يستحقونها، ويعجبني في هذا المقام ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله تعالى مبينًا عقيدة أهل السنة فيهم، أما الإمام علي: من الخلفاء الراشدين المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم, نحبه أشد الحب, ولا ندعي عصمته, ولا عصمة أبي بكر الصديق، وابناه الحسن والحسين سبطا رسول الله × وسيدا شباب أهل الجنة, ولو استخلفا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين: كبير القدر, من سادة العلماء العاملين, يصلح للإمامة, وكذلك ابنه جعفر الباقر, سيد إمام فقيه يصلح للخلافة.

وكذلك ولده جعفر الصادق: كبير الشأن من أئمة العلم، كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده موسى كبير القدر، جيد العلم، أولى بالخلافة من هارون، وله نظراء في الشرف والفضل.

وابنه علي بن موسى الرضا: كبير الشأن، له علم وبيان، ووقع في النفوس, صيَّره المأمون ولي عهده لجلالته, فتوفى سنة ثلاث ومائتين.

وابنه محمد الجواد: من سادة قومه, لم يبلغ رتبة آبائه في العلم والفقه.

وكذلك ولده الملقب بالهادي: شريف جليل.

وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري رحمهم الله تعالى(2)، وأما الإمام الثاني عشر فقيد، ولعله: «ذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة وأنه صاحب الزمان, وأنه صاحب السرداب بسامراء، وأنه حي لا يموت حتى يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطًا, كما مُلئت ظلمًا وجورًا، فوددنا ذلك والله، وهم في انتظاره من أربعمائة وسبعين سنة(3)، ومن أحالك على غائب لم ينصفك، فكيف

(1) اسم المؤلف: عبد الله محمد الغريب.
(2) سير أعلام النبلاء (ج120/13، 121).
(3) المراد زمان الذهبي المتوفي سنة 748هـ.

بمن أحال على مستحيل؟ والإنصاف عزيز,فنعوذ با لله من الجهل والهذي»[1].

* * *

(1) سير أعلام النبلاء (ج120/13).

استمرار الاثنى عشرية في العصر الحاضر

الإمام الشيعي في العصر الحاضر ودولته التي أقامها:

تفاعل العالم الإسلامي مع المد الشيعي بعد وصوله إلى الحكم في إيران, وإحداث الشيعة المخاطر, واستطاعت وسائل الإعلام الاثنى عشرية أن تخدع كثيرًا من المسلمين في طرحهم المعاصر, وساندتها أجهزة الإعلام الغربي, وأجاد الإمام الخميني في تمثيل الدور الماكر؛ فتعاطف كتاب وصحفيون ودعاة محسوبون على أهل السنة في تمجيد الخميني ووصفه بأنه من المجددين, بل يسير في موكب المصلحين من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب, وعبد الحميد بن باديس, ومحمد بن علي السنوسي وحسن البنا.

وبما أن تلك المقالات والكتابات أصبحت في ذاكرة التاريخ, وكانت سببًا في تضييع الحقائق للأجيال رأيت من النصح للأمة وأبنائها أن أبين أن الخميني امتداد لمدرسة الاثنى عشرية الشيعة ذات العقائد الفاسدة والمنحرفة عن الإسلام, وأن ثورته وجمهوريته الإسلامية المزعومة جيء بها لتكون خنجرًا مسمومًا لكل محاولة جادة لتطبيق الإسلام الصحيح, أتيحت للثورة الإيرانية الفرصة أمام العالم لتشويه الإسلام الصافي النقي الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ.

ولكون الدولة الإيرانية امتدت في العالم الإسلامي ناشرة للعقائد الفاسدة في إفريقيا وآسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي والشمال الإفريقي وأوروبا وأستراليا وأمريكا, وتأثر بها كثير من عوام المسلمين الذين لا يملكون فهمًا ولا علمًا ولا اطلاعًا على حقيقة أمرهم وأهدافهم, رأيت من المناسب أن أبين عقائد هذا القديس المزعوم الخميني ومن جاء بعده؛ حتى نحذر الأجيال من هذه المدرسة الشيطانية التي نخرت بنيان الأمة, ولا تزال تنخر دون كلل ولا ملل.

ومن عقائد الإمام الخميني الفاسدة ما ذكره في كتابه الحكومة الإسلامية: «وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب, ولا نبي مرسل», وقوله: «إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل»(1).

فهذا اعتراف واضح في كونه يفضل الأئمة الاثنى عشر على الأنبياء والرسل, وهذا مذهب غلاة الروافض في حكم كبار أئمة السنة.

يقول عبد الظاهر البغدادي (ت429هـ): «زعمت الغلاة من الروافض أن

(1) الحكومة الإسلامية للخميني ص (52).

الأئمة أفضل من الأنبياء ونعلم أن هذا باطل»[1].

ويقول القاضي عياض (ت544هـ): «وكذلك نقطع بتكفير غلاة الروافض في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء»[2].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت728هـ): «والرافضة تجعل الأئمة الاثني عشر أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وغلاتهم يقولون: إنهم أفضل من الأنبياء»[3].

ويقول محمد بن عبد الوهاب: «ومن اعتقد في غير الأنبياء كونه أفضل منهم أو مساويًا لهم فقد كفر, وقد نقل على ذلك الإجماع غير واحد من العلماء»[4].

إن الخميني في مرجعه في المعتقد والتصور الشيعي هو شيوخه الذين سبقوه وهو على ذات المنهج يعظم ويرفع من كتب الكافي للكليني والاحتجاج للطبرسي وغيرهما, ويترحم في كتبه على المجوسي حسين النوري الطبرسي صاحب كتاب فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب», وتجده يوثق كتابًا حوى «دعاء صنمي قريش» وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما, ويصف الشيخين اللذين حرفا كتاب الله[5], وله تفسير باطني في بعض الآيات, مثلاً في قوله تعالى: +إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا" [النساء:58]. فقد أمر الله الرسول برد الإمامة إلى أهلها وهو أمير المؤمنين, وعليه هو أن يردها إلى من يليه وهكذا...» [6].

وأما اعتقاده في الصحابة: فإن معتقد الاثنى عشرية: لا ولاية إلا بالبراءة من أعدائهم وهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فالخميني يرى مشروعية التبرؤ من هؤلاء الأخيار والتولي للاثني عشرية في الصلاة, فالمصلي يشترط له أن يقول في سجوده: «الإسلام ديني, ومحمد نبيي, وعلي والحسن والحسين – يعدهم إلى آخرهم – أئمتي بهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ»[7].

ويطعن في الصحابة لمخالفتهم النص المزعوم على إمامة علي يقول: «في

(1) أصول الدين, ص (298).
(2) الشفاء (ج290/1).
(3) منهاج السنة (ج177/1).
(4) الرد على الرافضة ص (29).
(5) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (ج237/2).
(6) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (ج237/2). واستفدت من هذا الكتاب في هذا الفصل.
(7) الخميني «تحرير الوسيلة» (ج169/1).

غدير خم في حجة الوداع عينه -يعني عليًّا- النبي × حاكمًا من بعده, ومن حينها بدأ الخلاف يدب في نفوس القوم»(1).

وكتابه الحكومة الإسلامية وغيره من كتبه مليئة بالانحراف عن الصراط, فالخميني لا يختلف في اعتقاده عن الرافضة, إن لم يكن أشد غلوًا وشططًا, ونشط الخميني قبل وفاته محاولاً بسط سلطان الشيعة على شعبه بالقوة, وقامت دولته بتصدير الثورة كما يقولون, واعتمدت الشيعة على المراوغة والكذب والتلبيس, لا يختلفون عن شيعة الأمس في المراوغة, وفي الغلو أيضًا.

ويعتمدون على مبدأ التقية في جلب الناس حولهم, كما قال الخميني لأتباعه في أحد خطاباته: «إن الناس عندكم الواحد تلو الآخر, إلا تكيلوا التهم لهم بالوهابية تارة, وبالكفر تارة أخرى, فمن يبقى حولكم إذا عمدتم إلى ممارسة هذا الأسلوب؟»(2).

ولهذا أمر الخميني الحجاج الإيرانيين بأن يصلوا مع أهل السنة تقية منهم وخداعًا للناس, كما كان يفعل قادة الشيعة, إذ كانوا يصلون خلف أهل السنة ثم يعيدون صلاتهم بعد ذلك أحيانًا, كما صدر عن علماء الشيعة المعاصرين, بل بلغ الحقد الشيعي على المسلمين, وخصوصًا أهل السنة في عصرنا الحاضر إلى حد الاستهتار بدماء المسلمين وأعراضهم وتهديد أمنهم في بيوتهم, ولعل ما فعلوه في مكة في عام 1407هـ أقوى شاهد على حقدهم ونظرتهم للمخالفين لهم, حينما تظاهر فريق منهم بمكة في الحرم يقرب من مائة وخمسين ألفًا منهم, وهجموا يريدون الكعبة, وتجمعوا في مظاهرات غوغائية, وكانوا يهدفون إلى تحقيق مخطط رهيب رافعين شعاراتهم وصور زعيمهم الخميني, وتقدموا رجال الأمن يريدون... لولا أن الله تعالى بفضله ومنه أفشل مخططهم وحيل بينهم وبين دخول الحرم, واشتبكوا مع المسلمين والجنود وبقية الحجاج في مذبحة عظيمة, وأوعزوا إلى أتباعهم وعملائهم في حج عام 1409هـ بعمل متفجرات حول الحرم المكي الشريف في يوم 7 من ذي الحجة وراح ضحيتها حجاج جاءوا لأداء فريضة الحج(3).

وأما عن تعذيبهم لأهل السنة في إيران فذكر عبد الله محمد الغريب في كتابه «أهل السنة في إيران» أنواعًا وأشكالاً من التعذيب والتنكيل والقتل والاغتصاب,

(1) الحكومة الإسلامية ص (131).
(2) فرق معاصرة للعواجي (ج262/1).
(3) المصدر السابق, (ج263/1).

وإليك بعض أساليب الاضطهاد والتعذيب والتقتيل التي اتخذها أولئك الأشرار تجاه أهل السنة في إيران:

1- ربط الأرجل بالحبال وضربها بالأسلاك.

2- ربط الأيدي من وراء ظهر المسجون, ووضعه في زاوية من السجن, وصب الماء أو النفط تحته, فعلوا هذا مع عدد من المسلمين .

3- ربط المسجون وضربه في المواضع المختلفة من جسده من عشر إلى مائة وخمسين ضربة, فإن مات فذلك, وإلا فاستمروا على هذه الحالة مدة خمسة عشر يومًا.

4- يضعون المسجون في الاصطبل ويتركونه إلى أن يموت.

5- ومن أنواع التعذيب سلخ جلد الرأس وثقب العين بالمثقب وإحراق الأسير حيًا وتقطيع الأعضاء وقلع الأظفار(1).

وهذا قليل من كثير, فهم يبغضون الصحابة ويشككون في القرآن, ويطعنون في السنة, فماذا ننتظر منهم؟؟!.

هل يمكن التقريب بين أهل السنة والشيعة؟

إن كل محاولات التقريب بين السنة والشيعة باءت بالفشل؛ لأن الخلاف بيننا وبينهم في الأصول وليس في الفروع.

ولن يجتمع السنة والشيعة إلا إذا تخلى أحد الطرفين عن معتقده.

فإن علماء الشيعة يرون التقريب مع أهل السنة, عندما يشتم أهل السنة الصحابة ويعتقدون معتقداتهم الباطلة, وهذا ما خرج به الشيخ الدكتور مصطفى السباعي من تجربته في هذا الموضوع مع أحد شيوخ الشيعة, وهو عبد الحسين شرف الدين الموسوي حيث إن الدكتور السباعي كان متحمسًا لفكرة التقريب واتصل بسياسيين وأدباء وتجار, وأعطوه عهودًا وكلامًا معسولاً وعلى رأسهم الشيخ الشيعي عبد الحسين الذي كان متحمسًا ومؤملاً بها, وإذا بالشيخ الموسوي يخرج كتابًا في أبي هريرة τ مليء بالسباب والشتائم, بل انتهى فيه إلى القول: «بأن (أبا هريرة τ) كان منافقًا كافرًا, وأن الرسول قد أخبر عنه بأنه من أهل النار»(2).

يقول السباعي: «عجبت من موقف عبد الحسين في كلامه وفي كتابه الموقف الذي لا يدل على رغبة صادقة في التقارب ونسيان الماضي»(3).

(1) أهل السنة في إيران, ص (54).
(2) السنة ومكانتها في التشريع للسباعي, ص(9).
(3) السنة ومكانتها في التشريع, ص(10).

وإن أهداف الشيعة من مسألة التقريب: أن يفتح لهم مجال لنشر عقائدهم في ديار السنة، وأن يستمروا في طعن الصحابة ﷺ، وأن يسكت أهل السنة عن ذلك، وإن انطلق صوت الحق يعلو ماجوا وهاجوا قائلين: إن الوحدة الإسلامية في خطر.

تجربة الشيخ موسى جار الله:

إن موسى جار الله من تركستان، قازاني روسي، وصل إلى منصب شيخ مشايخ روسيا في نهاية العهد القيصري وبداية العهد البلشفي الملحد، وكان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في أمور مسلمي روسيا الذين كانوا يزيدون على الثلاثين مليون نسمة، ثم هب عليه إعصار الشيوعية فأصبح بعيدًا عن دياره وأهله، له تآليف ورسائل، وتنقل بين الهند والحجاز ومصر والعراق وإيران، قال عن نفسه: «كان في وسعي أن أغدو كاتب روسيا الأول وأحد زعماء الطليعة فيها لو أنني تخليت عن إيماني، ولكنني آثرت أن أشتري الآخرة بالدنيا...» (1).

وهذا العالم الجليل ألمّ بلغات منها الفارسية، والتركية، والتترية، والروسية، وتضلع في اللغة العربية، وتعلم أصولها وصرفها ونحوها وبيانها وقريضها، فإنه لا تكاد تذكر أمامه مادة من مواد اللغة إلا أجابك على الفور عما إذا كانت وردت في القرآن أم لا، وإن كانت وردت ففي أي سورة، وفي أي آية، تظهر أتم الاستظهار»(2).

فحاول هذا العالم الجليل أن يجمع شمل الأمة، وأن يوحد أهل السنة والشيعة وبذل جهودًا في هذا الجانب عظيمة، فبدأ بدراسة كتب الشيعة وطالعها باهتمام كما يذكر أنه طالع «أصول الكافي وفروعه» و«من لا يحضره الفقيه» وكتاب «الوافي» و«مرآة العقول» و«بحار الأنوار» و«غاية المرام» وكتبًا كثيرة غير هذه الكتب(3).

ثم زار ديار الشيعة، ولبث فيها أكثر من سبعة أشهر، وزار معابدها ومشاهدها ومدارسها، وحضر محافلها وحفلاتها في العزاء والمآتم، وحضر حلقات الدروس في البيوت والمساجد وصحونها، والمدارس وحجراتها، وأقام بالنجف أيام المحرم، ورأى كل ما تأتي به الشيعة أيام العزاء ويوم عاشوراء».

وخرج هذا العالم الجليل بنتيجة علمية عملية وهي أن كتب الشيعة قد أجمعت على أمور لا تتحملها الأمة، واتفقت على أشياء كثيرة لا يرتضيها الأئمة ولا تقتضيها مصلحة الإسلام، وتناقض أكثر مصالح الأمة، ثم هي جازفت في مسائل

(1) مسألة التقريب بين السنة والشيعة، (ج201/2).
(2) مجلة المجمع العلمي العربي (ج266/4).
(3) مسألة التقريب بين السنة والشيعة، (ج201/2).

كثيرة منكرة مستبعدة ما كان ينبغي وجودها في كتب الشيعة, ولا يظن بالأئمة اعتقادها»(1) ولا يتحملها العقل والأدب ودعوى الائتلاف وليست إلا كيرًا ينفخ في ضرم العداوة والتوجع والتحامل الدائم على مجتهدي الشيعة نتيجة لتلك العقائد المدونة في الكتب لتجتث جذورها من القلوب, فإن الكلمات هي آراء وآثار المؤتمرات عداء(2).

فرأى الشيخ ببصيرته النافذة وعلمه الغزير أن نقد عقائد الشيعة هو أول مرحلة من تأليف قلوب الأمة, لا تأليف بدونها(3).

وقد امتلأ الشيخ أسفًا وحسرة مما رآه من منكرات في كتب الشيعة وواقعها, وكان أول مساعيه في التقريب لقاء شيخ الشيعة محسن الأمين في طهران, وجرى بينهما بعض الحديث, ثم قدم له الشيخ موسى ورقة صغيرة كتب فيها ما يلي:

1- أرى المساجد في بلاد الشيعة متروكة مهملة وصلاة الجماعة فيها غير قائمة, والأوقات غير مرعية, والجمعة متروكة تمامًا, وأرى المشاهد والقبور عندكم معبودة, ما أسباب كل هذا؟.

2- لم أر فيكم لا بين الأولاد, ولا بين الطلبة, ولا بين العلماء من يحفظ القرآن, ولا من يقيم تلاوته, ولا من يجيد قراءته, أرى القرآن عندكم مهجورًا, ما سبب سقوط البلاد إلى هذا الدرك الأسفل من الهجر والإهمال, أليس عليكم أن تهتموا بإقامة القرآن الكريم في مكاتبكم ومدارسكم ومساجدكم؟

3- أرى ابتذال النساء وحرمات الإسلام في شوارع مدنكم بلغ حدًّا لا يمكن أن يراه الإنسان في غير بلادكم.

وكان تاريخ تلك الرسالة 1934/8/26م, ثم أرسل رسالة إلى علماء النجف, وأرسل الرسالة نفسها إلى علماء الكاظمية.

فكتب «أقدم هذه المسائل لأساتذة النجف الأشرف بيد الاحترام, وبأمل الاستفادة, بقلب سليم صادق, كله رغبة في تأليف قلوب عالمي الإسلام(4) الشيعة الإمامية الطائفة المحقة على زعمهم عامة(5) وأهل السنة والجماعة راجيًا إجابة الأساتذة جميعًا أو فرادى, كل ببيانه البليغ, وبتوقيع يده مؤكدًا بخاتمه ومهره». ثم ذكر في الرسالة ما في كتب الشيعة من أمور منكرة مشيرًا إلى أرقام الصفحات في كل كتاب مذكور, وذكر قضايا خطيرة في كتب الشيعة

(1) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة, ص(20).
(2) مسألة التقريب (ج203/2).
(3) الوشيعة, ص(17).
(4) انظر: مسألة التقريب (203/2).
(5) انظر: الوشيعة ص (17).

تحول بين الأمة والائتلاف مثل:

1- تكفير الصحابة.
2- اللعنات على العصر الأول.
3- تحريف القرآن الكريم.
4- حكومات الدول الإسلامية وقضاتها وكل علمائها طواغيت في كتب الشيعة.
5- كل الفرق الإسلامية كافرة ملعونة خالدة في النار إلا الشيعة.
6- الجهاد في كتب الشيعة مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل حرمة الميتة وحرمة الخنزير, ولا شهيد إلا الشيعي, والشيعي شهيد ولو مات على فراشه, والذين قاتلوا في سبيل الله من غير الشيعة فالويل لهم يتعجلون.

ثم قال الشيخ بعدما نقل شواهد هذه المسائل من كتب الشيعة المعتمدة مخاطبًا شيوخ الشيعة: هذه ست من المسائل, عقيدة الشيعة فيها يقينية, فهل يبقى في توحيد كلمة المسلمين في عالم الإسلام أمل وهذه عقيدة الشيعة؟.

وهل يبقى بعد هذه المسألة, وبعد هذه العقيدة, لكلمة التوحيد في قلوب أهليها من أثر, وهل يمكن أن يكون للأمم الإسلامية مع هذه العقيدة في سبيل غلبة الإسلام في مستقبل الأيام من سعي؟.

وذكر غير ذلك من المسائل, راف الشيعة ثم قال: فنرضى لو أيها الأساتذة السادة بالإفادة حتى يتوحد الإسلام وتجتمع كلمة المسلمين حول كتاب الله المبين. انتظر الشيخ سنة وزيادة لم يسمع جوابًا من أحد إلا من كبير مجتهدي الشيعة بالبصرة, قام بوظيفته وتفضل علي بأجوبته في كتاب تزيد صفحاته على تسعين, وما كان كتابه إلا طعنًا في العصر الأول, وكان طعنه أشد من كتب الشيعة, ثم كتب الشيخ موسى جار الله كتابه القيم وسماه (الوشيعة في نقد عقائد الشيعة) ويقول: أدافع بذلك عن شرف الأمة وحرمة الدين, وأقضي به حقوق العصر الأول عليَّ وعلى كل الأمة[1].

وتوفي هذا الشيخ الجليل بمصر سنة 1369هـ فعليه من الله الرحمة والرضوان وجمعنا به مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وتعمدت هذا الإطناب لخطورة الدعوة الشيعية في العصر الحديث حيث إنها تحالفت مع النصيرية في سوريا, ومع حزب أمل الشيعي في لبنان, وتحالفت سرًا مع اليهود والنصارى للقضاء على هذه الأمة العظيمة كما أننا نطالع

---

(1) انظر: الوشيعة ص (39) ومن أفضل ما قرأت في مسألة التقريب رسالة جامعية اسمها مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة.

اهتمامهم البالغ بالشمال الأفريقي وحرصهم على إيصال نفوذهم إليه, والعمل على إرجاع ركامهم القديم.

ونجحوا في المغرب, وجندوا شبابًا في الجزائر, وأثروا في تونس, وتحالفوا مع ليبيا في أهدافهم الاستراتيجية في حرب العراق.

ولقد تأكدت وجود مجموعات لا يستهان بها من أبناء الشمال الإفريقي في إيران ليتلقوا على يد شيوخهم والرجوع بأفكارهم المسمومة إلى بلاد الفاتحين العظام مراعين في ذلك السرية والتدرج ودقة التنظيم.

واستغلوا الأحداث الدامية في الجزائر بين الحكومة وإخواننا المسلمين, فأظهر الإعلام الإيراني عطفه وتأييده للحركة الإسلامية في الجزائر, فتأثر كثير من إخواننا بهذا الإعلام المزيف الماكر الخادع.

ومن أراد من أبناء الصحوة أن يوسع مداركه وثقافته في هذا الباب فليراجع ما كتبه الشيخ سعيد حوي رحمه الله في الخميني شذوذ في العقائد والمواقف» وما كتبه أحمد عبد العزيز الحميدان «أن يعرفه المسلم عن عقائد الروافض الإمامية».

+سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ - وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ" [القلم: 44،45].

ثالثًا: الشيعة الإسماعيلية

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين:

فرقة: ساقت الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم, وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية.

وفرقة: نفت عنه الإمامة, وقالت إن الإمام بعد جعفر هو ابنه إسماعيل, وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية.

قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: «هؤلاء ساقوا الإمامة على جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل»[1].

وقال الشهرستاني: «الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر».

قالوا: ولم يتزوج الصادق رضي الله عنه على أمه -أم إسماعيل- بواحدة من النساء, ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله × في حق خديجة رضي الله عنها, وكسنة علي τ في حق فاطمة رضي الله عنها»[2].

(1) الفرق بين الفرق ص 62.
(2) الملل والنحل (191/1).

فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة، ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب «الإسماعيلية» منها الباطنية, وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلاً, ويطلق عليهم القرامطة, وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان «التعليمية والملحدة»، وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم»(1).

أ- خطر المذهب الباطني على الأمة:

اعلم أخي الكريم أن المذهب الباطني من الأسباب التي أضعفت الأمة, وأنهكت قواها, أدخل أهله عقائد فاسدة مبنية على الفلسفة القديمة، والأصول الإلحادية, فخدعوا ضعاف العقول، الذين لا حظ لهم من المنهج الرباني القويم, وتحالفوا مع النصارى والتتار ضد الإسلام والمسلمين. وعندما قويت شوكتهم وأقاموا دولة البحرين فعلوا ما تقشعر منه الجلود، وتشيب منه الرؤوس من قتل وسفك ونهب واغتصاب.

بل تجرءوا على حجيج بيت الله الحرام، فقد فعل أبو طاهر الجنابي بالحجيج أفاعيل قبيحة, فدفن منهم في بئر زمزم الكثير, ودفن كثيرًا منهم في أماكنهم من الحرم, وفي المسجد الحرام.

وعندما أقاموا دولتهم في الشمال الإفريقي أظهروا عقائدهم الفاسدة، وقتلوا العلماء, وأذلوا أهل السنة, وهذا ما سوف نعرفه؛ لأنه من صميم البحث.

إن العلامة البغدادي أوجز عداوة الفرق الباطنية للإسلام والمسلمين فقال: «اعلموا -أسعدكم الله- أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من ضرر الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر آخر الزمان؛ لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا هذا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره؛ لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها عن أربعين يومًا, وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر»(2).

وذكر ابن كثير أعمالهم التي قادها أبو طاهر الجنابي الباطني حين وصل مكة فقال: «فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقًا كثيرًا، وجلس أميرهم أبو طاهر لعنه الله على باب الكعبة والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام, في الشهر الحرام، في يوم التروية الذي هو من أشرف

(1) المصدر السابق (192/1).
(2) الفرق بين الفرق ص (382).

الأيام وهو يقول:

أنـــا اللــــه وباللــــه أنـــا   أنـــا أخلــق الخــلق وأفنيــهم أنـــا

فكان الناس يفرون منهم, فيتعلقون بأستار الكعبة, فلا يجدي ذلك عنهم شيئًا, بل يقتلونهم كذلك, ويقتلون وهم في الطواف, إلى أن قال: «فلما قضى القرمطي -لعنه الله- أمره, وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم, ودفن كثيرًا منهم في أماكنهم من الحرم وفي المسجد الحرام, وهدم قبة زمزم, وأمر بقلع باب الكعبة, ونزع كسوتها عنها وشققها بين أصحابه...»[1]. وعدد بعض العلماء من قتل بثلاثة عشر ألف نسمة وقيل: زهاء الثلاثين ألفًا[2] وكان ذلك سنة 317هـ.

متى ظهر مذهب الباطنية: اختلف العلماء في ذلك فبعضهم قال سنة 205هـ, والبعض الآخر يرى سنة 250 هـ, ونتيجة للسرية المفروضة على أتباع هذا المذهب يتعذر التحديد الدقيق لزمن ظهوره, وإن كانت أقوال العلماء تترجح ما بين سنة 200 و250, أي بعد انتشار الإسلام واعتزاز أهله وانطفاء نار المجوسية واندحار اليهودية, واندثار الأصنام الوثنية, وتهاوي زعامة الأمة الصليبية, كل الحسد والحقد قلوب الخارجين عن الإسلام من هذه الأمم المهزومة, فبدؤوا يخططون في الخفاء بطريقة ينفسون فيها عن أحقادهم للطعن في الإسلام وأهله, الشيطان وحزبه, فلجأوا لهذا الهدف العدائي إلى أقنعة تستروا بها لتحقيق ما يهدفون إليه منها:

1- اعتمادهم على تأويل النصوص تأويلات تنافي ما يقرره الإسلام ويأمر به.

2- إظهار مذهب التشيع لعلمهم بأن مذهب التشيع يحتمل كلامهم, إذ لم يجدوا إلى الدولة الإسلامية مدخلًا إلا من جهة إظهار التشيع والانتساب إلى المذهب الشيعي, وقد تم تأسيس هذا المذهب فيما يذكر الغزالي كما يلي: «في اجتماع قوم من أولاد المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدين, وطائفة كبيرة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين –زاد الديلمي: بقايا الخرمية واليهود– وجمعهم ناد تشاوروا[3] في حيلة يدفعون بها الإسلام» وقالوا: إن محمدًا غلب علينا وأبطل ديننا, واتفق له من الأعوان ما لا نقدر على مقاومتهم, ولا مطمع لنا في نزع ما في أيدي المسلمين من المملكة بالسيف والقتال لقوة شوكتهم وكثرة جنودهم, وكذلك لا مطمع لنا فيهم من قبيل المناظرة لما فيهم من العلماء الفضلاء

(1) البداية والنهاية (ج160/11).
(2) كشف أسرار الباطنية ص (39), سير أعلام النبلاء (321/15).
(3) انظر: فضائح الباطنية ص (18-20), وبيان مذهب الباطنية وبطلانه ص (19).

والمتكلمين والمحققين, فلم يبق إلا اللجوء إلى الحيل والدسائس, ثم اتفقوا على وضع حيل وخطط مدروسة يسيرون عليها لتحقيق أهدافهم.

ومن وسائلهم في تحقيق الأهداف الدخول على المسلمين عن طريق التشيع, وعلى مذهب الرافضة, وإن كان هؤلاء الباطنيون يعتبرون الروافض أيضًا على ضلال, إلا أنهم رأوهم على حد ما ذكر الغزالي- أقل الناس عقولاً, وأسخفهم رأيًا, وألينهم عريكة لقبول المحالات, وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات[1], وأكثرهم قبولاً لما يلقى عليهم من الروايات الواهية الكاذبة, فتستروا بالانتساب إليهم ظاهرًا, واللعب على أضعاف الناس بإظهار الرفض, وباطنهم الكفر المحض, كما ذكر الغزالي[2], وقال بعض العلماء: إن الإمامية دهليز الباطنية.. وهذا هو التفسير المعقول لما نلاحظ من التقارب الشديد بين الباطنية والرافضة[3].

وقال ابن كثير في حوادث سنة (278هـ): وفيها تحركت القرامطة, وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت مزدك, وكانوا يبيحون المحرمات, ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل, وأكثر ما يفسدون من جهة الرافضة ويدخلون إلى الباطل من جهتهم؛ لأنهم أقل الناس عقولاً, ويقال لهم: الإسماعيلية لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج ابن جعفر الصادق[4].

ب- عقائد الباطنية الفاسدة:

إن المتتبع لأخبار الباطنية وفرقهم ومذاهبهم يلاحظ تناقضًا واضحًا, ويرجع ذلك إلى أن أهل هذه الفرقة الباطنية الخبيثة أرادوا ذلك لكي تتضارب الأقوال فيهم عند الناس, وبذلك يثبتون ما يريدون وينفون ما يريدون, وأصل مذهبهم كله مبني على الكذب والحيل والخداع؛ لأن مذهبهم لا يقوم إلا على هذا التلون الكثير؛ ولذلك قال الغزالي: «والذي قدمناه في جملة مذهبهم يقتضي –لا محالة- أن يكون النقل عنهم مختلفًا مضطربًا؛ فإنهم لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد, بل غرضهم الاستتباع والاستيلاء, فلذلك تختلف كلماتهم ويتفاوت نقل المذهب عنهم»[5].

(1) فضائح الباطنية ص (19).
(2) المصدر السابق ص (37).
(3) انظر: فرق معاصرة للعواجي, (ج280/1).
(4) البداية والنهاية (ج61/11).
(5) فضائح الباطنية ص (38).

ولذلك يتضح للدارس أن عقائد الباطنية عبارة عن مجموعة من أفكار منحرفة من مذاهب متفرقة, كلها تخبط واضطراب واختلاف, وأحياناً يستدلون بأحاديث موضوعة ويحرفون الآيات عن مدلولها ومرادها.

وترجع عقائدهم إلى عدة نقاط منها:

1- إنكار وجود الله.

2- جحد أسمائه وصفاته.

3- تحريف شرائع النبيين والمرسلين.

4- ويسترشدون في ذلك كله بالتشيع لآل البيت أو بزعمهم التجديد والتقديم ولهم مقدرة عجيبة في وضع الشعارات والأكاذيب.

والموضوع أوسع من ذلك, ومن الكتب النافعة في هذا الباب فضائح الباطنية للغزالي, وفرق معاصرة للعواجي.

* * *

المبحث الثالث

داعية الباطنية في الشمال الإفريقي
أبو عبد الله الشيعي

وقع الاختيار على اليمن لكي تكون مركزًا لدعوة الشيعة الإسماعيلية لبعدها عن أنظار الدولة العباسية, ومن هناك بدؤوا في إعداد القوة العسكرية السرية التي عهد بها في اليمن إلى رجل يدعى رستم بن حوشب الذي استطاع أن يستقطب بعض الفرس المعادين للمسلمين, إلا أن ابن حوشب رأى أن أرض المغرب خصبة للبذور الشيعية, فأرسل من اليمن رجلين من أنصاره هما «سفيان والحلواني» إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعي, واستطاعا أن يتوغلا في قبائل البرانس ذات القوة والشكيمة والعدة والعتاد, والتي تتطلع إلى إقامة دولة في المغرب على نهج الأدارسة في المغرب الأقصى, والأغالبة الذين عاصمتهم تونس.

ومن بين الذين اختارهم ابن حوشب في اليمن أبو عبد الله الشيعي حسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء, وكان وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل لما لمس فيه من صفات قيادية بارزة من علم وذكاء ومقدرة في التعامل مع النويعيين, وأبو عبد الله الشيعي اليماني الصنعاني المؤسس الفعلي لدولة العبيديين الرافضة الإسماعيلية في المغرب, فأرسله ابن حوشب بعد موت الحلواني وأبي سفيان الداعيتين بالمغرب, وقال له: «إن أرض المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان, وقد ماتا, وليس لها غيرهما فبادر فإنها موطأة ممهدة لك»(1).

وفي ما بين 288-289هـ وصل أبو عبد الله الشيعي الرجل الداهية المراوغ الماكر صاحب الحيل العجيبة إلى مكة, وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت للحج واستطاع أن يتعرف على حجيج كتامة, وتقرب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم, وتمكن هذا الداعية من قلوب الشيوخ الكتاميين, ورجع معهم موهمًا إياهم أنه يريد مصر لتعليم الأولاد القرآن, وعرضوا عليه الذهاب معهم إلى المغرب, فأظهر المماطلة بلباقة الماكر, ثم لبى طلبهم ونزل في القيروان ليبحث عن مواطن الضعف في دولة الأغالبة, ويجمع المعلومات لمعرفة أقوى القبائل, وما هي الوسائل النافعة للدخول في بلاد المغرب, وبعد أن أدرك أن أقوى القبائل في المغرب هي الكتامية قرر الذهاب إلى بلدة تسمى

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (ج57/2) للدكتور عبد الفتاح الغنيمي.

«إيكجان» وهي بلدة في جبل وعر, وعرف أنها منازل قبيلة «سكتانة» التي هي بطن من بطون كتامة(1)، وحين انتهج المعلم المؤدب الورع, وسلك سلوك الزهد والعفاف انفتحت له تلك القلوب, واشتهر صيته, وأقبلت عليه القبائل البربرية وتصدى لتعليمهم وتفقيههم المذهب الشيعي, ودخل في الأمور السياسية ونظام الحكم ودور الإسلام في الحكم بالشورى, وفضل العلويين وأحقيتهم في الحكم.

بسبب الظلم الذي مارسته دولة الأغالبة على الناس استجابت بعض القبائل للداعية الشيعي الذي رأوا فيه المخلص وبدأ الصدام مع الأغالبة, وانتقل أبو عبد الله الشيعي إلى حصن منيع في جبال الأوراس ببلدة «تازروت» وهناك كان يوجه الضربات المتتالية لدولة الأغالبة, واعتمد في ذلك على فضح الأغالبة ونشر ظلمهم, وبيان أن حكمهم خارج عن الإسلام وشريعة الرحمن, وأثار الأحقاد القديمة بين الدولة الأغلبية وبعض القبائل, وأعطى عهودًا ومواثيق لرجال وزعماء كتامة أن المستقبل والدولة والتمكين لهم, وخضعت له القبائل وتوالت المدن في السقوط, وغنم غنائم عظيمة, وتزاحم الناس أتباعه, وساعده على ذلك انحلال وضعف دولة الأغالبة وانغماسهم في الترف, ونفور الناس من الأمراء ومن ظلمهم, وأظهر أبو عبد الله من الحزم والشجاعة والمقدرة السياسية والكفاءة العسكرية ما جعله ثقة لمن حوله من القادة والجنود, وأعطاه ذلك الأثر, وقويت شوكته حتى حان لكشف دعوته بأن يدعو للرضى من آل البيت النبوي الذي سيظهر عن قريب وتولى أمور الحكم.

واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يستولي على جميع النقط الحربية ما بين حصنه في جبال الأوراس حتى عاصمة الأغالبة.

وفي أوائل جمادى الأولى عام 296هـ/909م سقطت مدينة الأربس في يد قوات أبي عبد الله الشيعي, وهذه المدينة هي مدخل القيروان العاصمة السياسية للبلاد, ففر زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في جمادى الآخرة عام 296هـ, ودخل أبو عبد الله الشيعي القيروان(2).

وأعلن أبو عبد الله إثر هذا النصر الحاسم على الأغالبة أن الإمام الحقيقي للمسلمين هو عبيد الله المهدي وأنه سيصل قريبًا إلى بلاد المغرب ويظهر العدل والمساواة, فانضم إليه بعض قواد الأغالبة, وأصبح جيشه مائتي ألف مقاتل لكي يدافعوا عن المذهب الشيعي الإسماعيلي والدولة الجديدة, ومن دراسة التاريخ أن الانتصارات تستحوذ على عوام الناس ويظنون أن المنتصر على الحق, فالانتصارات العسكرية والانتصارات الملموسة وإيمان الناس الشديد بالمهدي المنتظر, جعل الناس قادة وجنودًا لا رأي لهم ولا عقل بل مثل

---

(1) موسوعة المغرب العربي (ج56/2).
(2) موسوعة المغرب العربي (ج60/2).

الآلات في التنفيذ, وحاول أبو عبد الله الشيعي أن يعتمد في نشر مذهبه بالدعاية والمناظرة لإقناع علماء السنة والجماعة من أمثال عثمان بن سعيد الحداد, إلا أنه أسقط في يديه عندما أقاموا الحجة عليه وعلى دعاته, ولذلك اضطر أخو أبي عبد الله الشيعي «أبو العباس» أن يستخدم القوة لقلع مذهب أهل السنة والجماعة من عاصمة الشمال الإفريقي, فلم يمنع علماء أهل السنة أصناف العنف والشدة والتعذيب وضربوا بالسياط وقطعوا ألسنة بعضهم, وضربوا الرقاب, وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء, وصلبوا الفقهاء وطردوهم, وصادروا الأموال, وبطحوا الناس على ظهورهم ووجوههم, وهددوهم بأن يدوسوهم بالأقدام, واشتد الصراع المذهبي في الدولة الوليدة فتدخل الداهية أبو عبد الله الشيعي ومنع المناظرة والمجادلة حسمًا للصراع وعزل أخاه عن ولاية القيروان.

ونجح أبو عبد الله الشيعي في تثبيت دعائم الحكم في القيروان بواسطة زعماء قبيلة كتامة وخصوصًا سيدهم ومطيعهم «غزوية بن يوسف» وأخاه وبقية قومه, وأرسل إلى عبيد الله المهدي وابنه القاسم للمجيء إلى القيروان, وشد عبيد الله من الشام رحاله من مدينة سلمية إلى مصر, ثم برقة, ثم طرابلس متخفيًا في ثياب التجار, ولفقت قصص عجيبة في نجاته من ولاة الدولة العباسية, ووقع في أسر بني مدرار أمراء سجلماسة(1).

واستطاع أبو عبد الله الشيعي الصنعاني في 297هـ/910م أن يجهز جيشًا ضخمًا حطم به دولة بني مدرار وخلص عبيد الله المهدي وابنه من السجن, وفي طريق عودته مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بني رستم في عام 297هـ/910م وأصبح المغرب الأوسط إلى تلمسان دولة عبيدية.

وتولى عبيد الله المهدي الذي أعلن قيام الدولة الفاطمية التي نسبها إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله × لخداع الناس وتضليلهم.

وبدأت الدولة الفاطمية المزعومة تسعى للقضاء على الخلافة العباسية خصوصًا بعد أن تمكنوا من القضاء على دولة بني مدرار في سجلماسة, ودولة رستم في تاهرت, ودولة الأغالبة في إفريقية «تونس».

وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام 297هـ/ 910م وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين(2).

وكطبيعة الثورات تخلص عبيد الله المهدي من أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس وغزوية بن يوسف بمؤامرات متتالية وكل من كان من أنصارهم.

وهذا ملاحظ أيضًا في دراسة التاريخ القديم والحديث, وأن الأصدقاء

(1) موسوعة المغرب العربي (ج65/2).
(2) المرجع السابق ص (70).

والرفقاء الذين لا تقوى لهم, وإنما تجمعهم مصالح ومبادئ فاسدة يصفُّون بعضهم بعضًا, وهكذا حدث في الثورة الفرنسية 1879م, والثورة الجزائرية, والثورة السورية, والمصرية, والليبية, والعراقية, وهكذا قديمًا وحديثًا.

وظهر لي أن ذلك سنة من سنن الله الجارية في المجتمعات «من أعان ظالمًا سلطه الله عليه» +وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" [الأنعام:129].

وذكر المؤرخون أن الخلاف وقع بين عبيد الله المهدي, وأبي عبد الله الشيعي على الأموال التي استأثر بها النزق الكذاب عبيد الله المهدي, ويرى بعضهم أن أبا عبد الله الشيعي شك في عبيد الله المهدي بأنه ليس المهدي المنتظر.

وذكر صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح مقلد الغنيمي السببين[1] ثم يدافع عن نسب العبيديين وأنه في رأيه يرجع إلى فاطمة الزهراء, وشن حملة على من طعن في نسب العبيديين ونسبهم إلى اليهود, أو إلى المجوس, واتهمهم أنهم موالون للخلافة العباسية في بغداد أو الأموية في الأندلس وأن الخلافتين شنتا حملة شعواء على النسب العبيدي.

وأقول: إن ابن كثير -رحمه الله- الذي نقل أقوال العلماء في البداية والنهاية في الطعن في نسب العبيديين أقوى حجة وأمتن سندًا وأعرف بحقائق الدول ومؤسسيها وهو يتصف بالصدق والأمانة العلمية المتكاملة, وهذا واضح في البداية والنهاية, أما ابن الأثير فلم يجزم ومال إلى إثبات النسب بدون تصريح, وذلك في «الكامل في التاريخ»[2] وهو معروف بميوله الشيعية, وابن تيمية في الفتاوى يؤكد ويصرح على عدم ثبات النسب الفاطمي, وإليك شهادة المؤرخ القدير ابن خلكان حيث قال: «والمحققون ينكرون دعواه في النسب وينصون على أن هؤلاء المنتسبين بالفاطميين أولهم من أصل يهودي من سلمية بالشام, ولقبوا بالقداحيين؛ لأن أحد أجدادهم كان يقال له القداح, وهلك عبيد الله سنة 322هـ, وتمكن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر, واستمر ملك العبيديين نحو قرنين من الزمان إلى أن قضى عليهم بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي في سنة 564هـ, وأزال منها كل آثار العبيديين, وقطع شرورهم عن الناس وأراح الله العباد منهم»[3].

وعلى كل حال فأعمالهم وعقائدهم تدل على أن أبناء المسلمين من السلالة النبوية الشريفة وعلماءهم وفقهاءهم الأطهار الأخيار برآء من هذه الأقوال الشنيعة, والأفعال القبيحة, وأنا شخصيًا أميل إلى أن أبا عبد الله الشيعي

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي ص (70).
(2) انظر: الكامل في التاريخ (ج11/5) وما بعدها.
(3) فرق معاصرة (ج289/1).

اتضح له أن عبيد الله المهدي رجل طامع في الملك والجاه, وتبدو يسعى
وشعر أبو عبد الله ببعده عن مكانته فعمل على الخلاص منه عندما
حاول إقناع من حوله بأنه ليس هذا هو الذي يحدثهم عنه, إلا أن عبيد الله المهدي
كان أسرع منه فتخلص الأخير من خصومه, وأما عن نسبه فالحق الواضح البين
أن عبيد الله المهدي دعي في نسبه لا صلة له بأهل البيت, وهذا ما سنبرهن
عليه في ترجمته إن شاء الله.

* * *

المبحث الرابع

عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول

(297- 322هـ/ 910- 934م)

ذكر الإمام الذهبي ترجمة لعبيد الله المهدي في سير أعلام النبلاء فقال: «عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام, وأعلنوا بالرفض, وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدعاة يستغوون الجبلية والجهلة»(1).

وذكر ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعي حيث إن المعز منهم لما سأله السيد ابن طباطبا عن نسبه قال: غدًا أُخرج لك, ثم أصبح وقد ألقى عُرَمَة من الذهب, ثم جذب نصف سيفه من غمده, فقال: هذا نسبي, وأمرهم بنهب الذهب, وقال: هذا حسبي(2)! مفتي الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: «مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها, وهو عراقي الأصل, ولد في الكوفة سنة 260هـ, واختبأ في بلدة سلمية بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام من يوم أن ولد إلى أن استقر في سَلَمية كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح.

وفي منطقة سلمية مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق, وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية, وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنه بالنكاح الروحي(3), ثم قال: «هذا أصل عبيد الله المهدي, وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه».

وقد خالفهم في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين في المغرب وفي كل مكان, وفي مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون, وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذين ادعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحي الذي ذكرناه آنفًا.

وبعد أن تخلص عبيد الله المهدي من خصومه أراد أن ينشر مذهبه في القيروان, ثم الشمال الإفريقي, فاصطدم مع علماء أهل السنة والجماعة وأقنعوا الناس بالدليل والبرهان, أن دولة العبيديين كفرية بعيدة عن الشريعة الإسلامية, وقامت بين العبيديين وأهل السنة حروب طاحنة فانتقل عبيد الله المهدي إلى المهدية بعد أن بذل في بنائها وتحصينها أموالاً طائلة, إلا أن شعور

---

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (ج141/15).
(2) المصدر السابق (ج142/15).
(3) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص (253).

الاستقرار والاطمئنان جانب العبيديين في الشمال الإفريقي لضراوة المقاومة التي قادها علماء أهل السنة، وقد أخضعوا المدن بقوة السلاح، وفي الأندلس، وأرسلوا حملات إلى مصر إلا أنها فشلت أمام جيوش العباسيين التي قادها «مؤنس الخادم».

وكانت أشد هذه الحملات خطرًا الحملة التي كانت في عام 321هـ، واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود «محمد الإخشيدي»(1).

واستمر عبيد الله في حكمه إلى أن هلك في عام 322هـ وله اثنتان وستون سنة، وكانت دولته خمسًا وعشرين سنة وأشهر(2).

وبهذا نلحظ أن قبائل المصاميد وكتامة التفت حول الدعوة العبيدية لظنهم أنه هو المهدي المنتظر، ونجد في التاريخ الإسلامي كثيرًا من الثورات والدول التي قامت واعتمدت على هذه الفكرة. ومن المناسب والمهم في بناء السياج الصحيح للعقل أن أوضح قول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، أن أبين معتقد أهل السنة في قضية المهدي المنتظر، وهل على الناس كشف الدجالين والأفاكين، وسأتحدث عن قول أهل السنة في المهدي عقب انتهاء ترجمة العبيدي.

كما نجد أن عبيد الله المهدي اعتمد على ادعائه على هذه الدعوى حتى بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يزعزع ثقة البرابرة فيه ذهب إليه كبير كتامة وقال لعبيد الله المهدي: قد شككنا فيك، فائت بآية، فأجاب بأجوبة قبلها عقله وقال: إنكم تيقنتم، واليقين لا يزول إلا بيقين لا بشك.

وكانت المسائل التشكيكية في المهدي التي طرحها أبو عبد الله الشيعي على زعماء كتامة من أن الإمام يعلم الأمور قبل وقوعها، وهذا قد دخل معه بولدين، ونص أن الأمر في الصغير بعده، ومات الولد بعد عشرين يومًا، فلما سأل كبير زعماء كتامة المهدي عن الطفل قال عبيد الله المهدي: إن الطفل لم يمت، وإنه إمامك، وإنما الأئمة ينتقلون، وقد انتقل لإصلاح جهة أخرى، قال كبير زعماء كتامة: آمنت.

وقال أبو عبد الله الشيعي: إن الإمام لا يلبس الحرير والذهب، وهذا قد لبسهما. وليس له أن يطأ إلا ما تحقق أمره، وهذا قد وطئ نساء زيادة الله التغلبي، يعني عبيد الله المهدي، فلما سأل كبير كتامة عبيد الله المهدي فأجاب بأنا نائب

(1) موسوعة تاريخ المغرب (ج76/2).
(2) انظر: سير أعلام النبلاء (ج151/15).

الشرع أحلل لنفسي ما أريد, وكل الأموال, وزيادة الله كان عاصيًا[1].

وفي نقل هذا اعتماد الدجالين على استخفاف عقول الناس وتغرير الجهال وتوهمهم معتقدات في الأئمة من تعظيم آل البيت والإيمان بالمهدي المنتظر, وغير ذلك، فالمقام مناسب لبيان عقيدة أهل السنة في المهدي المنتظر.

* * *

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (ج15/146).

المبحث الخامس
عقيدة أهل السنة والجماعة في المهدي

بينت الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى يخرج في آخر الزمان رجلًا من أهل البيت يؤيد الله به الدين, يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا, تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط, تخرج الأرض نباتها, وتمطر السماء قطرها, ويعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «في زمانه تكون الثمار كثيرة, والزروع غزيرة, والمال وافر, والسلطان قاهر, والدين قائم, والعدو راغم, والخير في أيامه دائم»(1).

اسمه وصفته:

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ×, واسم أبيه كاسم أبي النبي ×, فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبد الله, وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ×, ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما.

قال ابن كثير رحمه الله: «فهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني τ»(2). وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة, أقنى الأنف»(3).

مكان خروجه:

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق, فقد جاء في الحديث عن ثوبان τ قال: قال رسول الله ×: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة, ثم لا يصير إلى واحد منهم, ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق, فيقتلونكم قتلًا لم يقتله قوم.» ثم ذكر شيئًا لا أحفظه.. فقال: «فإذا رأيتموه, فبايعوه, ولو حبوًا على الثلج, فإنه خليفة الله المهدي»(4).

قال ابن كثير رحمه الله: «والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة, يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء, حتى يكون آخر الزمان, فيخرج المهدي, ويكون ظهوره من بلاد المشرق, لا من سرداب سامراء, كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه الآن, وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان, فإن هذا نوع من الهذيان, وقسط كبير من الخذلان, شديد من الشيطان, إذ لا دليل على ذلك, ولا برهان, لا من كتاب, ولا من سنة, ولا معقول صحيح, ولا استحسان.. إلى أن قال: «ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه,

* جل مبحث المهدي المنتظر اختصرته من كتاب أشراط الساعة, وهو رسالة ماجستير ليوسف الوابل.
(1) النهاية, الفتن والملاحم, (ج1/31), تحقيق د. طه زيني.
(2) النهاية في الفتن والملاحم (ج1/29).
(3) الأجلى: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين, والذي انحسر الشعر عن جبهته.
(4) أخرجه ابن ماجه, كتاب الفتن, باب خروج المهدي (ج2/1367), ومستدرك الحاكم (4/464), وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ويقيمون سلطانه, ويشيدون أركانه, ويكونون رايات سودًا أيضًا, وهو زي عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله × كانت سوداء يقال لها: «العقاب».

إلى أن قال: والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق, ويبايع له عند البيت, كما دلت على ذلك بعض الأحاديث»[1].

2- وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة τ قال: قال رسول الله ×: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟!»[2].

3- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله × يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة», إلى أن قال: «فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام, فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا, فيقول: لا, إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»[3].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة, وصلاته للمسلمين, وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهداه.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرهما مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين, ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمى: محمد بن عبد الله, ويقال له المهدي, والسنة يفسر بعضها بعضًا.

1- فعن أبي سعيد الخدري τ قال: قال رسول الله ×: «منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه»[4].

2- وعن جابر τ قال: قال رسول الله ×: «ينزل عيسى ابن مريم, فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا, فيقول: لا, إن بعضهم أمير بعض, تكرمة الله هذه الأمة»[5].

3- وعن أبي سعيد الخدري τ قال: قال رسول الله ×: «المهدي مني أجلى الجبهة, أقنى الأنف, يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورًا يملك سبع سنين»

(1) النهاية, الفتن والملاحم (ج31/1).
(2) صحيح البخاري, كتاب أحاديث الأنبياء, باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (ج491/6) مع الفتح.
(3) صحيح مسلم, كتاب الإيمان, باب نزول عيسى (ج193/2) مع شرح النووي.
(4) رواه أبو نعيم في «أخبار المهدي» صححه الشيخ الألباني رحمه الله صحيح الجامع الصغير (7170/5).
(5) «المنار المنيف» لابن القيم, ص (147، 148).

.[1]

أولاً: تواتر أحاديث المهدي:

1- قال الشوكاني في «التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر»: «الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر, وهي متواترة بلا شك ولا شبهة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول, وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي فهي كثيرة أيضًا, إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[2].

2- قال صديق حسن خان: «الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جدًا, تبلغ حد التواتر وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»[3].

3- وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة, وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام»[4].

وأما العلماء الذين صنفوا في المهدي كتبًا بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة, كالسنن الأربعة والمسانيد «مسند أحمد» و«مسند البزار», و«مسند أبي يعلى» و«مسند الحارث بن أبي أسامة» و«مستدرك الحاكم» و«مصنف ابن أبي شيبة» و«صحيح ابن خزيمة» وغيرها من المصنفات التي ذكرت فيها أحاديث المهدي[5] فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعًا كبيرًا من الأحاديث الواردة فيه.

ثانيًا: المنكرون لأحاديث المهدي والرد عليهم:

ومما يؤسف له أن طائفة من الكُتَّاب من أمثال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان, وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعها الشيعة, ثم دخلت كتب أهل السنة[6].

ومن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»[7] محمد فريد وجدي, وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكُتَّاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه

---

(1) سنن أبي داود, كتاب المهدي, (ج375/11) رقم (4265).
(2) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.
(3) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص (112).
(4) نظم المتناثر من الحديث المتواتر, ص(147).
(5) عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للعباد, ص (166-168).
(6) تفسير المنار (ج9/499-504).
(7) دائرة معارف القرن العشرين, (ج480/10).

لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيرًا من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: «فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[1].

قال يوسف الوابل في أشراط الساعة تعليقًا على قول ابن خلدون: «ونقول: لو صح حديث واحد لكفى حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة»[2].

قال الشيخ أحمد شاكر ردًا على ابن خلدون: «إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين: الجرح مقدَّم على التعديل، ولو اطلع على أقوالهم وفقهها ما قال شيئًا مما قال، وقد يكون قرأ وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره»[3]. ثم بيَّن أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين.

وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد وجدي -رحمهم الله- ليس صوابًا، والأحاديث الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة معنويًا، وهذا يكفي، وكون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، هذا صحيح، ولكن أئمة الحديث بينوا الصحيح من غيره، وصنَّفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذاب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي، فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها كثير من صفاته واسمه واسم أبيه، فإن عيَّن إنسان شخصًا، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة، فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما فيه من التلبيس؛ لأن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

---

(1) مقدمة ابن خلدون (ج1/574).
(2) أشراط الساعة للوابل، ص(267).
(3) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (ج5/197، 198).

وأيضًا, فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يُعتدّ به, والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة, وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم فلا يجوز أن تكون عمدة يُرد بها ما ثبت من حديث رسول الله ×[1].

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: «وأما الرافضة الإمامية فلهم قول رابع, وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر, من ولد الحسين بن علي, لا من ولد الحسن, الحاضر في الأمصار, الغائب عن الأبصار, الذي يورث العصا, ويختم الفضا, دخل سرداب سامراء طفلاً صغيرًا من أكثر من خمسمائة سنة, فلم تره بعد ذلك عين, ولم يُحس فيه بخبر ولا أثر, وهم ينتظرونه كل يوم! يقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا, اخرج يا مولانا! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان, فهذا دأبهم ودأبه, ولقد أحسن من قال:

رداب أن يلد الذي ... م ... ا آن ... ا؟

م العف ... اء ف ... إنكم ... اء والغيلان ... ا

ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدم وضحكة يسخر منها كل عاقل»[2].

وإلى هنا يكفي الإيضاح في بيان حقيقة المهدي عند أهل السنة والجماعة, وبذلك يتضح للقارئ الكريم الميزان الصحيح في دعوة كل مدعٍ للمهدية.

إن من أسباب الكارثة التي وقعت في قبائل الشمال الإفريقي هي جهلهم بحقائق الأمور المستنبطة من الكتاب والسنة؛ ولذلك سهل على أبي عبد الله الشيعي أن يقود القبائل الكتامية إلى معتقداته الباطنية الرافضية الفاسدة.

(1) انظر: أشراط الساعة, ص(267).
(2) انظر: المنار المنيف, ص (152، 153).

الصراع بين الدولة العبيدية

المبحث الأول
ثورة قبيلة هوارة في طرابلس

بعد أن احتل عبيد الله المهدي طرابلس عين ماكنون بن ضبارة اللحياني الكتامي واليًا عليها, ثارت قبيلة هوارة على الوالي في طرابلس لعدم استقرار الأحوال, وأرادت أن تستفيد من فرصة العهد الجديد الذي لم تستقر فيه الأحوال في الشمال الإفريقي.

وانضمت قبائل من زناتة ولماية وغيرهما من القبائل البربرية إلى قبيلة هوارة, وقاد هذه الثورة ضد العبيديين في طرابلس أبو هارون الهواري, وحاصروا طرابلس واحتمى ماكنون بسور المدينة.

وأنجده عبيد الله المهدي بجيش بقيادة تمام بن معارك (أبو زاكي) وهو ابن أخي ماكنون».

واستطاعت جيوش العبيديين أن تقضي على هذه الثورة الوليدة في مهدها.

وأوعز عبيد الله المهدي إلى ماكنون بن ضبارة للتخلص من تمام بن معارك بزعمه أنه يتآمر عليه, فقتل العم ابن أخيه تمام في غرة ذي الحجة سنة 298هـ. وشعر ماكنون بأمان فانطلق في الحكم وسمح لبني قومه من كتامة بالتعدي على أموال الناس والاستهانة بأعراضهم والتدخل في أمورهم, فثار به أهل طرابلس سنة 300هـ وأخرجوه فلحق بالمهدي برقادة وقتل أهل طرابلس من كان فيها من أنصار ماكنون الكتاميين, وأغلقوا أسوار المدينة, فأرسل عبيد الله المهدي أسطولاً بحريًا استطاع الأسطول الطرابلسي أن يحرقه وأن يقتل من فيه, وأرسل بعده ابنه أبا القاسم بجيش عرمرم بطريق البر فاعترض له أهل البلاد إلا أنه استطاع أن يهزمهم ووصل إلى أسوار المدينة وضرب عليهم حصارًا أفنى من أقوات الناس في المدينة حتى أكلوا الميتة, ولم يستطع ابن إسحاق أن يواصل المقاومة, وتفاوض أعيان طرابلس مع أبي القاسم الشيعي وطلبوا منه الأمان فأمنهم بشرط أن يسلموا محمد بن إسحاق, ومحمد بن نصر, ورجلاً آخر يقال له: الحوححة فقبلوا ذلك وسلموهم إليه, ودخل طرابلس وأرهق أهلها بغرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار, وتخلص أبو القاسم الشيعي من الأغالبة الذين كانوا في المدينة مدعيًا أنهم هم الذين حرضوا على الفتنة.

وولى جباية مال الغرامة رجل يقال له الخليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس.

وجابي مال الغرامة هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته, وقتل على يد ابن كيداد اليفرني لما استولى على القيروان سنة 322هـ.

أن استقرت الحوبعال في طرابلس فقتل أبو القاسم الرافض إلى رقادة, وطاف بالرجال الثلاثة الذين تسلمهم من طرابلس في شوارع القيروان على الجمال تشهيرًا بهم ثم قتلهم[1].

ويتضح من هذا الثورة المبكرة ضد العبيديين أن أهل طرابلس غير راغبين في الحكم العبيدي إلا أنهم خضعوا له بقوة السلاح.

وكتب التاريخ تؤكد دور علماء وفقهاء طرابلس وجهادهم في مواجهة الفكر الشيعي والمد الرافض والمعتقد الباطني الذي تكفلت دولة بني عبيد بنشره في الشمال الإفريقي.

* * *

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (247،246).

المبحث الثاني
زحف العبيديين على برقة

فلما استقر أمر طرابلس أرسل عبيد الله جيوشه نحو برقة بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي، وكان قاسيًا شديدًا نزع الرحمة من قلبه، فتوجه في عام 301هـ لأخذها واستمرت تحركات الأغالبة فدخلها بدون حرب، وهجرها من كان فيها من جنود العباسيين والأغالبة، وتقدم حباسة إلى أجدابية فهجرها من كان فيها من العباسيين والأغالبة، وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون قتال، مدينة برقة وكانت جيوش العبيديين تتدافع نحو حباسة بدون انقطاع.

وكان حباسة هذا لا يفي بعهد، فكلما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وسبى نساءهم، ومن فظاعة أعماله التي ذكرتها كتب التاريخ أنه قبض على مجموعة من الناس كانوا يلعبون بالحمام في برقة فأمر بهم فأجلسهم حول النار، وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى، ثم أمر بهم فألقوا في النار، وهذه الأعمال الوحشية تدل على عداوة العبيديين لكل من له رائحة سُنية، وربما يتقربون بها إلى الله على زعمهم الفاسد.

ومن الأعمال الشنيعة ما قام بإعلانه في برقة أن من أراد العطاء فليأت إلينا، فحضر إليه من الغد ألف رجل فأمر بهم فقتلوا جميعًا، ووضع جثثهم بعضًا على بعض، وجيء له بكرسي فوضع على الجثث وجلس عليه، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم، ومات منهم أناس من هول ما رأوا، وقال لهم: إن لم تأتوني غدًا بمائة ألف مثقال قتلتكم جميعًا، فأحضروها له.

وانتقم من حارث ونزار ابني جمال المزاتي في نفر من أبناء عمومتهم في مدينة بوقاع وسبى نساءهم وأخذ جميع أموالهم وخيرات بلادهم، فاغتم أهالي برقة من هذه الأفعال الشنيعة والأعمال القبيحة فأرسلوا إلى عبيد الله المهدي فاعتذر الملعون بأنه ما أمر بشيء من ذلك، وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر، وأرى أقبح مما كان يفعله في برقة(1).

وفي سنة 302هـ تقدمت جيوش أبي القاسم الرافضي إلى الإسكندرية ولم ينل ما أراده ورجع مهزومًا، وذلك أن أبا القاسم أرسل قصيدة إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما وصل إليه ملكهم فرد عليه الصولي بقصيدة على وزنها ومنها:

فلـو كانــت الدنيـا مثــالاً لطائـر   لكان لكم منها بمـا حـزتم الــذنب

فغضب من هذا البيت وقال: «والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه إن قدرت أو أهلك دونه»(2).

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (247).

ثورة أهل برقة على العبيديين:

وفي هذه السنة 302هـ انتقم أهل برقة من العبيديين فقتلوا عاملهم وكثيرًا من رجال كتامة, فأرسل المهدي جيوشه سنة 303هـ لتأديبهم والانتقام منهم, وقاد هذه الجيوش أبو مدين ابن فروخ اللهيصي, وحاصر برقة ثمانية عشر شهرًا ودخلها سنة 304هـ عنوة, وقتل أكثر أهلها, وأحرق دورهم, وهتك أعراض نسائها وبعث بالأسرى إلى عبيد الله الذي أمر بقتلهم, وبقي أبو مدين ببرقة إلى أن مات بها سنة 306هـ(1).

وفي سنة 304هـ حارب العبيديون أهل صقلية وغزوا مصر في ذي القعدة سنة 306هـ واستولوا على الإسكندرية وأكثر الصعيد ولم يستقروا بل رجعوا.

وفي سنة 308هـ انتقل المهدي إلى المهدية واتخذها عاصمة لدولته, وفي سنة 310هـ خرجت نفوسة على عبيد الله وقدموا عليهم أبا بطة, وقوي شأنه وعظمت شوكته وكان مذهبهم إباضيًا فأرسل إليهم عبيد الله جيشًا بقيادة علي بن سليمان الداعي فانهزم جيش العبيديين وفر علي إلى طرابلس, ثم أعاد الكرة على نفوسة وحاصروها.

وعيَّن محمد بن عمر النفطي قاضيًا على طرابلس, استطاعت الدولة العبيدية أن تفرد نفوذها بقوة السلاح على إفريقية وطرابلس وبرقة وجزيرة صقلية في حكم عبيد الله المهدي.

(1), (2) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (248).

المبحث الثالث
خروج أبي يزيد الخارجي على العبيديين

هو مخلد بن كيداد اليفرني بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن يفرن، ويفرن هذا أخو مغراو الذي تنسب إليه قبيلة مغراوة، أمه أم ولد واسمها سبيكة، وهي من بلاد السودان التي كان يتردد عليها والده للتجارة فاتخذها جارية له[1].

وعاش أبو يزيد فقيرًا وطلب المذهب الخارجي فتتلمذ على النكارية[2]، وكان في أول أمره معلمًا لتحفيظ القرآن الكريم، وقضى معظم وقته في التعليم وظهر في بداية أمره بمظهر الزهد، فكان يركب حمارًا ويتنقل به بين القبائل والجبال فلقب بصاحب الحمار، وتحدثنا كتب التاريخ أنه لما قام بالثورة ضد العبيديين كانت سنه تقارب التسعين، وتغلغل العداء بين زناتة والعبيديين وما مارسته دولة الروافض من أخذ الضرائب حتى فاقوا في ظلمهم الأغالبة واشتدت معارضة البرابرة بعد أن أعلن الروافض لعن الشيخين «أبي بكر وعمر رضي الله عنهما» على المنابر وفي المنتديات والحلقات وفي خطب الجمعة، وبدأ أبو يزيد في إعداد العدة في منطقة الجريد وأشغل الشمال الإفريقي بحروب طاحنة، وكانت بداية ثورته في زمن عبيد الله في جهات طرابلس وتابعه كثير من البرابرة من شدة جور محمد بن عبيد الله المهدي لأهل السنة وظلمه لهم، وتعذيبه إياهم، ورأى علماء أهل السنة الوقوف مع أبي يزيد ضد بني عبيد وقالوا: هم أهل القبلة -أي أصحاب أبي يزيد- وأولئك ليسوا من أهل القبلة -وهم بنو عدو الله-[3]، وأبو يزيد نفسه شديد الكره لأهل السنة أشد العداوة، لأنه كان نكاريًا[4] يستحل أموال أهل السنة ونساءهم، فانتهز كراهية أهل السنة لمحمد بن عبيد الله وأخفى عليهم عقيدته وأظهر لهم صداقته، ولما رأى من نفسه غلبة وقدرة على أهل السنة وخلى بينهم وبين محمد بن عبيد الله يقتلهم ويستبيح نساءهم ويغتصب أموالهم، إلا أنه خيفة أن ينفض الناس عنه قتل خلفاءه وأعوانه فينفض الناس من حوله لفعل بأهل السنة الأعاجيب.

ومع ذلك فقد فُضح أمره وانفض الناس من حوله، وكان أبو يزيد الخارجي قاسي القلب يجيد التنكيل بالقتيل، يخطط لإظهار الزهد وأفعاله تدل على نبذ الأديان واحترام الإنسانية، وكان لا يعرف القيم، وأخرب البلاد وقتل الرجال وسبى النساء وشق فروج النساء وبطون الحوامل وألجأ الناس إلى

---

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (248).

(2) المصدر السابق, ص (249).

(3) سير أعلام النبلاء (ج155/15).

(4) النكارية فرقة من الخوارج.

القيروان حُفاة عُراة, ومات كثير منهم عطشًا وجوعًا, وكان إليه بعض الناس مما حل بالبلاد من خراب فقال لهم في سوسة خربة واسد تهزوها: «أيكون لو خربت مكة والبيت المقدس»[1].

كذا إذا غابت العقيدة السليمة وغابت التصور الصحيح, نهج الرباني يصبح الإنسان وحشًا مفترسًا قسيًّا حروبه لا منهج يلزمه, ولا عقل يمنعه, ولا شرع يوجهه.

إن عقيدة أبا يزيد الخارجي الفاسدة جعلته جبارًا عنيدًا وغدًا مفسدًا لا يراعي عهود ولا ذمة لأحد, إذا دخل انطلق الفاسق والخراب وأهل في وحول المستنقعات النتنة البعيدة عن نور الوحيين «كتاب الله وسنة رسوله ×».

واستطاع العبيديون الروافض القضاء على ثورة أبي يزيد في زمن إسماعيل محمد المهدي الملقب «بالمنصور» حيث استطاع المنصور أن يوقع بجيوش أبي يزيد خسائر فادحة في الأموال والرجال والأتباع, حتى تمكن منه بعد جهد جهيد وظفر به فأخذه وهو جريح ومات منه فأمر المنصور بسلخه وحشوه تبنًا وصلبه»[2].

وقال العبيديون في هذا الموقف شعرًا نظمه علي بن محمد الأيادي الشاعر:

الملعون مخيفته	أعلى يطع المُعد
في ذرى ، ملساء على	ك الماء تبصدد
فوق الله ومن	المنصور في جيش معد
ارتقى المنصور بالسيف له	كشف آبيب البرد
د في كف الردى	د بحبل من مسد
وى إعجال ه	م أهد
ه أيد مدنسًا	رف فيه ومرد
لم الا م يطب	د منه فانجرد
الخوه سعفًا	ماليًن كعب وكند
على مستحصد	م فيه أود

---

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (251).
(2) سير أعلام النبلاء (ج157/15).

وبقى مصلوبًا حتى تمزق جلده وأذرته الرياح, وكان ذلك في المحرم سنة 336هـ, وواصل ابنه الثورة مطالبًا بثأر أبيه, فأرسل إليه المنصور قائده زيري بن مناد(1) فقتله, وانتهى أمر أبي يزيد الخارجي وابنه.

لم تكن ثورة أبي يزيد ذات خطة واضحة, ولم تكن لها أهداف لتكوين دولة, حيث إنه استطاع بجيوشه أن يكبل العبيديين خسائر فادحة, وينتزع منهم الملك ويحاصرهم في المهدية, ومع هذا وقف حائرًا, وأساء السيرة مع كثير من القبائل, وفقدت الثقة فيه وانفضوا من حوله, وإنما الواضح في ثورته الانتقام وسفك الدماء من مخالفيه بطريقة وحشية همجية تدل على قلب حقود لكل من يخالفه, ولقد استغرقت هذه الثورة النارية أربعة عشر عامًا انشغلت بها دولة العبيديين الروافض.

ولعل هذا من سنة الله في تسليط بعض الظالمين على بعض, حيث قتل الألوف من أتباع الطرفين وفقد الأمن والأمان في الشمال الإفريقي.

* * *

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (251).

المبحث الرابع
القائم بأمر الله الخليفة الثاني الرافضي
أبو القاسم نزار بن عبيد الله
(322-334هـ , 934- 945م)

هـ و أبـ و القاسـ م محمـ د بـ ن المهـ دي بـ ن عبيد الله ولد في سـ لمية سـ نة ثمـ ان وسبعين ومائتين, بويع له بخلافة الروافض في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وكـ ان مهلكًا لـ ل الخير فاسدًا خرج عليه العقيدة, أقام فـ ي سـ نة اثنتـ ين وثلاثمائة أبـ و يزيـ د مخلـ د بـ ن كيـ داد البربـ ري الخـ ارجي وجرت بينهم ملاحـ م وحروب, وحصره مخلد بالمهدية وضيق عليه واستولى علـ ى بـ لاده ثـ م وسـ وس القائم, واختلط وزال عقله, وكان شيطانًا مريدًا يتزندق فأظهر سب الأنبياء, وكان أتباعه يصيحون العنوا الغار ومـ ا حـ وى وأبـ اد عـ ددًا مـ ن العلمـ اء وكـ ان يراسـ ل قرامطة البحرين, ويأمر بإحراق المساجد والمصاحف.

واستغل أبو يزيد الخارجي كفر أبـ ي القاسـ م وألـ ب عليه إباضـ ية المغـ رب وجمـ وع القبائـ ل وفقهـ اء وزهاد القيروان فتلك أبـ و يزيـ د المغـ رب بأجمعـ ه وركـ زت ألويته عند جـ امع القيروان فيه لا إلـ ه إلا الله لا حكـ م إلا لله وعلم أحمر كان فيهم ا: نصـ ر مـ ن الله وفتح قريب علم لأبـ ي يزيد الله مـ فيصه: روليـ ك علـ ى مـ ن سـ ب نبيك(1).

وكان القائم العبيدي يقذف الصحابة ويطعن فـ ي النبـ ي صلى الله عليه وسلم إذ أمـ ر بتعليق رؤوس كباش على الحوانيت, وكتب عليها إنها رؤوس الصحابة, وبسـ بب كفرهم وطغيانهم قال الشاعر في بني عبيد:

اكر الغـ ادر اوي لشـ يعته ـةمـ ن صـ حبيًّا وتًـ اع
ا دين إذاً يخـ لاً اطبهم وت مـ ن كفـ ر وإبـ داع
روم أذ تم مـ ثلهم لبكـ وا د لسـ دوا صـ مخ أسـ ماع(2)

المبحث الخامس
الخليفة الشيعي الرافضي الثالث في الشمال الإفريقي
المنصور بنصر الله أبو طاهر إسماعيل
(334- 341هـ ، 945- 952م)

هـ و أبـ و الطـ اهر إسـ ماعيل بـ ن القـ ائم العبيدي الباطني صـ احب المغرب.

(1) سير أعلام النبلاء (ج15/152-156).
(2) المصدر السابق (ج15/156).

تولى خلافة الروافض بعد أبيه الذي قضى على ثورة أبي يزيد الخارجي النكاري.

قال عنه الذهبي: «وكان بطلاً شجاعًا، رابط الجأش، فصيحًا مفوهًا، يرتجل الخطب, وفيه إسلام في الجملة وعقل بخلاف أبيه الزنديق»(1).

قلت: وقول الذهبي: وفيه إسلام في الجملة فيه نظر.

وذكر الذهبي شيئًا من كرمه فقال: جمع مرة من أولاد جنده ورعيته عشرة آلاف صبي, وكساهم كسوة فاخرة، وعمل لهم وليمة لم يسمع بمثلها قط, وختنهم جميعًا، وأعطى كل واحد منهم من المائة دينار والخمسين دينارًا على أقدامهم.

ومن محاسنه أنه ولى محمد بن أبي المنظور الأنصاري قضاء القيروان, وكان من كبار أصحاب الحديث، لقي إسماعيل القاضي، والحارث بن أبي أسامة, فقال: بشرط أن لا آخذ رزقًا ولا أركب دابة, فولاه يتألف الرعية, فأحضر إليه يهودي قد سب فبطحه وضربه إلى أن مات تحت الضرب لعلمه أنه لو رفع إلى المنصور لا يقتله فضربه القاضي مظهرًا ضرب الأدب حتى قتله»(2).

توفي في سنة إحدى وأربعين ومائة بسبب برد وريح عظيمة أصابته مع جنوده وحاشيته عندما كان يتنزه.

وكان يتودد إلى رعيته واقتصر على إظهار التشيع, وقام بعده المعز ولده(3).

(1) سير أعلام النبلاء (ج157/15).
(2) المصدر السابق (ج158/15).
(3) المصدر السابق (ج159/15).

المبحث السادس

المعـــــز لدين الله أبو تميـم ســــعد

ذو الحجة 341- ربيع 362هـ

هو معد بن إسماعيل المنصور ويكنى أبو تميم, ولد بالمهدية في 11 من رمضان سنة 319هـ, وعهد له والده بالخلافة بعده وجلس على سرير الملك من ذي الحجة سنة 341هـ, وهو الخليفة العبيدي الرابع الذي حكم الشمال الإفريقي.

واستطاع أن يمد نفوذه على معظم الشمال شرقًا وغربًا, ففي سنة 342هـ ولى باسيل الصقلي عاملًا على سوورتي, وعلى إجدابية ابن كافي الكتامي, وولى على برقة وأعمالها أفلح الناسب. وتوسعت أملاكه في صقلية سنة 354هـ, وفي أيامه دخل اليهود إفريقية, وأصبحت حدود مملكته إلى حدود مصر, ومن ثم استطاع أن يتابع أحوال الحكام والأمراء في مصر عن كثب, وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر بعد موت كافور الإخشيدي في سنة 355هـ اضطربت الديار المصرية, فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب, فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر, وحشد الجيوش العظيمة, وجمع الأموال الجزيلة, واختار جوهر الصقلي قائدًا لتلك الجيوش التي كانت تزيد على مائة ألف, وأمر المعز كل أمرائه أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب الصقلي, وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء السنة في خمسة عقود متتالية في الشمال الإفريقي, رافضين المذهب الإخشيدي التابع للدولة العباسية في مصر, فرمى بسهامه المسمومة إليها, ودفع إليها جيوشه الملحمة من أتباعه وشياطينه أن يقضوا على الخلافة العباسية الأبية ذات التوجهات السنية.

وقد حاول المعز أن يضم الأندلس السنية إلا أن رجالها البواسل منعوه من أن يصل إلى هدفه, وفي جمادى الآخرة سنة 358هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة خادمه جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين, وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر سنة 361هـ ليكون منبرًا من منابر العبيديين الروافض في بث معتقداتهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة, ثم تحول بفضل الله ثم جهود صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على العبيديين في مصر إلى قلعة من قلاع أهل السنة, ودخلت جيوش العبيديين على دمشق سنة 358هـ بقيادة جعفر بن خلاف أحد قواد العبيديين(1).

رحلة المعز إلى مصر:

---

(1) انظر: الفتح العربي في ليبيا ص (362).

وبعد أن مهدت مصر للمعز العبيد دي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله, وسار مفارقًا إفريقيا إلى مصر, ولى أمر إفريقيا أحد زعماء قبيلة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين ابن زيري وضم المعز إلى مصر كلًا من طرابلس وبرقة, وسكن برقة شاعره الملحد الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:

ي محمد ... ارك الأنصار

ت أذ ئت ... الواحد القهار

دي شـ فاعته غ دًا ... حقًا ... راه النار

ومن شعره في المعز:

ل ذ ور ظلم ... ة ت وك ... ل ف وق دون

ادك فضل ش ... فاعة م زلف ... ى فأذ ت مك ين

ومنه:

دعوه منتقمًا ا ا زَ ادرًا ... غفارًا ذنوب صفوحًا

لا أن دعيـ ت خليفة ... بعد المسيح مسيحًا

رك السـ موات العلا ... فيك م ديحًا

ومنه:

ن مكن ون سـ ر الله م ... ا ي الملك وت ميكائيلا

الخل ق م ا أوتيـه ... م يخبيه والتأويلا

وكان المعز وكذلك أجداده يستمعون إلى مثل هذه الكفريات ولا ينكرونها ويقرونهم عليها, وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في 362هـ.

وقتل الملحد الكافر ابن هانئ في برقة «مقبرة الملاحدة» في رجب سنة 362هـ, وهو في الثانية والأربعين من عمره, ووجدت جثته مرمية في الكلاب على ساحل بحر برقة.

وتأسف المعز عليه, فقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك[1]. واستمر المعز في سيره حتى وصل قصور الدود المصرية, واستقبله وفد بالإسكندرية في 23 شعبان سنة 362هـ.

(1) انظر: الفتح العربي في ليبيا, ص (362).

عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر.

وامتد ملك المعز من سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي.

وبقى المعز في مصر سنتين ونصف وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة 365هـ, ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثًا وعشرين سنة[1].

قال الشيخ طاهر الزاوي -رحمه الله-: «ودامت دولة الفاطميين 260 سنة, منها اثنتان وخمسون سنة بالمغرب وثمانية وثمانون بمصر, وعدد خلفائها أربعة عشر خليفة, أولهم عبيد الله المهدي, وآخرهم العاضد الذي توفي بمصر يوم عاشوراء سنة 567هـ, وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب. والملك لله وحده يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء»[2].

قال الذهبي رحمه الله: «في هذا الوقت الرفض, دى صد فحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والمغرب بالدولة العبيدية وبالعراق والجزيرة والعجم بني بويه, وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج, فعزلوه وأقاموا ابنه الطائع لله وله السكة والخطبة, وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن»[3].

وكان المعز شاعرًا, ومن شعره:

نعت بذ ... ا ... اجر ف ... ي المعاجر[4]

ي ف ... ي النف ... و ... س ... ي الحن ... اجر

ت ببيـ ... نكم ... اجر ف ... ي الهـ ... واجر[5]

وقال الذهبي -رحمه الله- في المعز: «وعاش ولم يتبع ين سنة وكان مولده بالمهدية ودفن بالمعزية بالقاهرة في عام خمس وستين وثلاثمائة»[6].

* * *

(1) المصدر السابق ص (362).
(2) المصدر السابق ص (262).
(3) سير أعلام النبلاء (ج164/15).
(4) المعاجر: وهو ثوب تلفه المرأة في استدارة رأسها.
(5) سير أعلام النبلاء (ج164،163/15).
(6) المصدر السابق (ج166/15).

المبحث السابع
جرائم العبيديين في الشمال الإفريقي

لقد ارتكب الروافض الشيعة في أهالي الشمال الإفريقي من أهل السنة ما تشيب منه الولدان ولا تصدقه العقول, وأنزلوا غضبهم وصبوا سخطهم على العلماء خاصة:

1- فعندما ادعى عبيد الله الرسالة أحضر فقيهين من فقهاء القيروان وهو جالس على كرسي ملكه وأوعز إلى أحد خدمه, فقال للشيخين: أتشهدان أن هذا رسول الله؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان: إنه رسول الله ما قلنا ذلك, فأمر بذبحهما»(1) وهذان الشيخان المغربيان هما: ابن هذيل وابن البردون.

قال الذهبي عن ابن بردون: «هو الإمام الشهيد المفتي أبو إسحاق إبراهيم بن البردون الضبي مولاهم الإفريقي المالكي, تلميذ أبي عثمان الحداد»(2).

وطلب منه لما جرد للقتل أترجع عن مذهبك؟ قال: أعن الإسلام أرجع؟ فقتل سنة تسع وتسعين ومائتين(3). ولم يكتف عبيد الله المهدي الزنديق لما ادعى الرسالة فحسب بل خرج أتباعه في كفرهم حتى أن أهل القيروان كانت أيمانهم المغلظة: «وحق عالم الغيب والشهادة, مولانا الذي برقادة» وهذا أمر ادعى معرفة الغيب, والغيب لا يعلمه إلا الله وهو من أمر خصوصيات الألوهية, فمن ادعاه لغير الله يقع في الشرك والكفر العظيم, قال تعالى: +وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" [الأنعام: 59].

+قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" [النمل: 65].

كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق, قال رسول الله ×: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت...» وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء(4).

2- لقد كان شعراء الدولة العبيدية يمدحون خلفاءهم إلى درجة الكفر البواح وينشرونها بين الناس دون خوف, ويعتز بذلك ابن هانئ الأندلسي في مدحه

(1) سير أعلام النبلاء (ج14/217).
(2) المصدر السابق (ج14/215).
(3) المصدر نفسه (ج14/215).
(4) انظر: كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص (90).

للمعز وكان أحد شعرائهم, مدح عبيد الله فقال:

ادة المسد يح آدم وذ وح

ا الله ذو المعا الي ل واه رايا ح[1]

كما شبه شعراؤهم المهدية بمكة المكرمة وقصر المهدي بالكعبة.

ة الحد رم الم وقى د الحد رام

الحج يج الا ركن أضد حى ص قصد ركم التثا ام[2]

3- شنوا الحرب النفسية على أهل السنة وذلك بتعليق رؤوس الأكباش والحمير على أبواب الحوانيت والدور وكتبوا عليها أسماء الصحابة رضي الله عنهم, (لعنهم الله أنى يؤفكون) وأظهروا سب الصحابة رضي الله عنهم وطعنوا فيهم وزعموا أنهم ارتدوا بعد النبي × وخصصوا دعاة للنداء بذلك في الأسواق.

ومن ذكر الصحابة بخير أو فضل بعضهم على علي τ قتل أو سجن[3].

4- عمل العبيديون على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين؛ ولذلك أصدر عبيد الله أوامره بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد, وجعل اسمه بدلاً منها, وتولى هذا الرافضي الخبيث على أموال الأحباس وسلاح الحصون, وطرد العباد والقصاد من الرباطات, وجعل قصر الأغالبة مخزنًا للسلاح[4].

5- حرص العبيديون على منع التجمعات خوفًا من الثورة والخروج عليهم؛ ولذلك جعلوا بوقًا يضربونه في أول الليل فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء[5].

وهذا الفعل لا يزال منتشرًا في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها +مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْـدِيكُمْ إِلاَّ سَـبِيلَ الرَّشَادِ" [غافر: 29].

6- أتلفوا مصنفات أهل السنة ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التجيبي (ت 346هـ) الذي توفي وترك سبعة قناطير كتب كلها بخط يده, فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذ منها كتب الأحكام والإسلام

(1) مدرسة الحديث في القيروان (ج72/1).
(2) البيان المغرب (ج184/1).
(3) مدرسة الحديث في القيروان (ج73/1).
(4) انظر: رياض النفوس (ج56/2).
(5) المصدر السابق (ج29/2). وجل هذا المبحث من كتاب مدرسة الحديث في القيروان مع تصرف واضح.

وبغضًا فيه»[1].

7- حرموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك, واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحيانًا, بل ذلك نوع من الإرهاب الخبيث, يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادي عليه: «هذا جزاء من يذهب مذهب مالك», ولا يفتى إلا لمن كان على مذهبهم كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزلي «أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد» المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائة[2].

8- منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد, ونشر العلم, والاجتماع بالطلاب, فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفًا من بني عبيد, فكان أبو محمد بن أبي زيد, وأبو محمد بن التبان وغيرهما يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد, شيخ السنة بالقيروان في خفية, يجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفًا من بني عبيد»[3].

وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليًا, وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

9- أجبروا الناس على الدخول في دعوتهم فمن أجاب ترك, وربما ولوه بعض المناصب, ومن رفض قُتل, كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها عبيد الله بالقيروان, وقعت بين الدولة العبيدية وأهل القيروان مقتلة عظيمة, فقد أمر الشيعي بالكف عن العلم والفتيا, وأقيمت مناظرات صورية, دارت على علماء السنة محن, وقتل منهم عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم المستميت عن السنة, قال القابسي: «إن الذين ماتوا في دار البحر -سجن العبيديين- بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب, بين عالم وعابد ورجل صالح»[4]. هذا عدا من يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان, وإزاء ذلك, على سير الحياة العلمية, ذكر كثير من العلماء الذين آثروا اعتزال الفتنة, مثل أبي محمد الورداني[5], ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهل الشمال الإفريقي إلا عزيمة وصبرًا وتمسكًا بأصول أهل السنة والجماعة[6].

(1) المصدر السابق (ج423/2).
(2) المصدر السابق (ج56/2).
(3) انظر: مدرسة الحديث بالقيروان (ج76/1).
(4) المصدر السابق (ج74/1).
(5), (4) المصدر السابق (ج75/1).

10- عطلوا الشرائع, وأسقطوا الفرائض عمن تبع دعوتهم حيث يـ تم إدخ الهم إلى دامـ وس ويـ دخل علـ يهم عبيـ د الله لابسًا فـ روًا مقلوبًا, ماشيًا على يديـ ه ورجليـ ه, فيقول لهم: «بَخْ بَخْ» ويفسـ ر لهـ م هـ ذا العمـ ل بقولـ ه: أما دخـ ولي علـ ى يدي ورجلي فإنمـ ا أردت أن أعلمكـ م أنكـ م مثـ ل البهـ ائم لا شـ يء, لا وضـ وء, ولا صلاة, ولا زكاة, ولا أي فرض من الفروض, قط جميـ ع ذلـ ك عـ نكم, وأمـ ا لبس الفرو مقلوبًا فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين, وأما قولي لكم بَخْ, فإنمـ ا أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشراب الخمر....» (1).

ويعجبني في هـ ذا المقـ ام مـ ا قالـ ه شـ اعر أهـ ل السـ نة فـ ي الشـ مال الإفريقـ ي أبـ و القاسم الفزاري في هجاء بني عبيد:

كهم وظنـ وا أنهـ م	م سـ ببـ اة عمومًـ ا
الشـ يطان مـ ن خطـ واتهم	وج الضـ لال قويمًـ ا
عـ ن الصـ ديق والفـ اروق	كـ لموا تسـ ليمًا
وا بهم ـا ابـ ن أسـ ود نابحًـا	درة واللعـ ين تميمًـ ا
لاب جهـ نم وتـ أخروا	ارهم الإلـ ه نجومًـ ا
عري مـ ن هـ م إن جهلـ وا	ا, . م إن عـ ددت صـ ميمًا
ن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هـ م	وا الحـ ديث قـ ديمًا
أم هم من الصابين أم من عصـ بة	وم وأكثـ روا التنجيم ـا
ة معطلـ ة رأوا	ذاب غـ دًا ولا تنعيمًـ ا؟
ة قـ د عظمـ وا	عـ ن ظلمـ اتهم تعظيمًـ ا؟
ذهب فرقـ ة معلومـ ة	ا بفـ رع واه أرومـ ا (2)

وستأتي قصـ يدته الرائيـ ة التـ ي هجا فيها بنـ ي عبيـ د وكيـ ف نجـ اه الله مـ نهم بـ إذن الله تعالى.

11- زادوا فـ ي الأذان: «حي على خيـ ر العمـ ل», وأسقطوا مـ ن أذان الفجـ ر «الصلاة خير من النوم», ومنعوا الناس من قيام رمضان, وليس شـ يء أشـ د علـ ى بنـ ي عبيـ د مـ ن هـ ذه الصـ لاة, وقتلوا صـ لاة الضـ حى, وقدموا صـ لاة الظهـ ر, لفتنـ ة أمـ ا خطبة الجمعـ ة فقـ د أظهـ روا فيهـ ا سـ ب الصـ حابة وضاهوا ودوَّن الكفـ ر,

(1) رياض النفوس (ج504/2).
(2) المصدر نفسه (ج494/2، 495).

فتركها الناس وأقفرت المساجد في أيامهم، وكان بعض أئمتهم يصلون إلى رقادة، فلما انتقل عبيد الله إلى المهدية صلوا إليها[1]، وكثيرًا ما كانوا يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال[2]، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه محمد بن الحبلي قاضي مدينة برقة.

قال الذهبي رحمه الله في ترجمته: «الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة محمد بن الحبلي. أتاه أمير برقة، فقال: غدًا العيد، قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور، وكان هذا من رأي العبيدية يفطرون بالحساب ولا يعتبرون رؤية، فلم ير هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد، فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب، وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه فأحضر، فقال له: تنصل، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر فعلق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يسق، ثم صلبوه على خشبة. فلعنة الله على الظالمين»[3].

ومن جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك»[4].

إن أجيال المسلمين الذي يقرؤون تاريخ العبيديين لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم والعلماء، وقد نشرت كتب الفلاسفة ولكن لا أحد يذكر عدد الذين ترجموا للعلماء- بطش هؤلاء الأوغاد الظلمة بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون معد بن إسماعيل الملقب بالمعز، ويذكرونه وكأنه بطل من أبطال التاريخ[5].

وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق أو بالفكر الشيعي، أو بذلت لهم أموال لطمس الحقائق التي لابد من بيانها للأجيال الصاعدة لتعرف عدوها من صديقها، ولتعرف أن الأفكار لا تموت، وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح، وأن هؤلاء الملاعين من أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سرًا وإعلانًا، ليلاً

(1)، (2) انظر: مدرسة القيروان (ج73/1).
(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء (ج374/15).
(4) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبدة، ص(39).
(5) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبدة، ص (40).

للقضاء على العقيدة البيضاء الناصعة التي تلقفتها جموع أهل السنة والجماعة من الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه الغر الميامين الطاهرين الطيبين رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

المبحث الثامن
موقف علماء أهل السنة وأساليب المقاومة

لقد قاوم علماء أهل السنة المد العبيدي الرافضي بكل الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل للسلاح ضد الطغاة الظالمين, وتمحورت طرقهم في عدة أساليب منها:

1- صمود العلماء والفقهاء ضد أعمال العبيديين وتحملهم للأذى والسجن والقتل مما ساهم في تثبيت عوام المسلمين على عقيدة أهل السنة, وقد عمل العبيديون على إخلاء الساحة من العلماء بالترغيب وضمهم في دعوتهم أو بالترهيب حتى يسقط العامة.

2- قاطع العلماء جميع مؤسسات الدولة العبيدية فلا يتحاكمون إلى قضائهم, ولا يصلون وراء أئمتهم, ولا يأتون مهنئين, ولا معزين, ولا يتوارثون معهم, ولا يصلون على موتاهم, ولا يناكحونهم(1).

وبرز في هذا العمل الجليل العلامة الفقيه أبو يوسف جلبة بن حمود بن عبد الرحمن الذي قاطع العبيديين علانية في أول خطبة لبني عبيد في جامع القيروان, فعندما سمع ما لا يجوز سماعه, قام قائمًا وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ومشى إلى آخر باب في الجامع والناس ينظرون إليه حتى خرج من الباب وهو يقول: قطعوها قطعهم الله, ومن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم وهو أول من نبه على ذلك(2).

3- حصن علماء أهل السنة أهل الشمال الإفريقي بالفتاوى التي أوضحت كفر بني عبيد, وأن من دخل في دعوتهم راضيًا, ومن خطب لهم في دعوتهم, وقد انتشرت هذه الفتاوى, وعرفها الخاص والعام, فكانت حاجزًا منيعًا بين العوام, وبين التردي في دعوة الرافضة(3), ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين حصنوا الأمة بمنهج أهل السنة والجماعة في الشمال الإفريقي في تلك الفترة الحرجة الشيخ أبو إسحاق السبائي رحمه الله, والذي رأى أن الخوارج من أهل القبلة فاجتهد في الوقوف معهم ضد الكفرة العبيديين.

قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني: خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي -رحمه الله تعالى- مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عبيد الله مع أبي يزيد, فكان أبو إسحاق يقول -وهو يشير بيده إلى عسكر أبي يزيد-: هؤلاء

---

(1) انظر: مدرسة أهل الحديث في القيروان (ج78/1).
(2) انظر: رياض النفوس للمالكي (ج43/2).
(3) رياض النفوس للمالكي (ج340/2).

من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا بأهل القبلة يريد عسكر بني عبيد عدو الله فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من ليس من أهل القبلة «وهو على غير القبلة وهم بنو عبيد عدو الله- فإن ظفر لنا بهم «لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد؛ لأنه خارجي, والله عز وجل يسلط عليه إمامًا عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا».

والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب بن تميم, وأبو عبد الملك مروان بن نصرون, وأبو إسحاق السبائي, وأبو الفضل الممسي, وأبو سليمان ربيع القطان(1).

كان ربيع القطان أول من شرع في الدعوى إلى الجهاد ضد العبيديين وندب الناس وحضهم عليه.

ولما حضرت صلاة الجمعة طلع «الإمام» على المنبر, وهو أحمد بن محمد بن أبي الوليد وخطب خطبة أبلغ فيها, وحض الناس على الجهاد وأعلمهم بما فيه من الثواب, وتلا هذه الآية: +لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ" [النساء:95].

يا أيها الناس جاهدوا من كفر بالله, وزعم أنه رب من دون الله تعالى وغيَّر أحكام الله عز وجل, وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه.

فبكى الناس بكاء شديدًا, وقال في خطبته: اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله المدعي الربوبية من دون الله جاحدًا لنعمتك, كافرًا بربوبيتك, طاعنًا على أنبيائك ورسلك, مكذبًا بمحمد نبيك وخيرتك من خلقك, سابًا لأصحاب نبيك وأزواج نبيك أمهات المؤمنين, سافكًا دماء أمته, منتهكًا لمحارم أهل ملته, افتراء عليك, واغترارًا بحلمك, اللهم فالعنه لعنًا وبيلاً, وأخزه خزيًا طويلاً, واغضب عليه بكرة وأصيلاً, وأصله جهنم وساءت مصيرًا, بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين, وأحاديث في الغابرين, وأهلك اللهم شيعته, وشتت كلمته, وفرق جماعته, واكسر شوكته, واشف صدور قوم مؤمنين, ثم نزل فصلى الجمعة ركعتين وسلم, وقال: ألا إن الخروج غدًا يوم السبت إن شاء الله(2).

وركب ربيع القطان فرسه وعليه آلة الحرب, وفي عنقه المصحف, وحوله جمع من الناس من أهل القيروان متأهبون معه دون لجهاد أعداء الله, وعليهم آلة الحرب فنظر إليهم القطان فبكى, وبشر بهم وقال: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك, يا رب أي عمل

(1) المصدر السابق (ج343/2).
(2) رياض النفوس للمالكي (ج343/2،344).

وبأي سبب وصلت إلى هذا؟ ثم أخذ في البكاء حتى جرت دموعه على لحيته، ثم قال لهم: رأيت محمدًا رسول الله ﷺ وقال لي: ... في منامي ... وطن آخر بعد أن أنصدت الناس: +يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" [التوبة:123] ثم قال: +أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" [التوبة:13-15].

ثم أشار بيده وقال: اذكروا الله يذكركم, فكبر الناس، حتى بلغ الجامع، ثم قاتل في قتال أعداء الله حتى قتل سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مقبلاً غير مدبر[1], واستشهد معه فضلاء وأئمة وعباد صالحون.

4- قاطع العلماء من استجاب وداهن العبيديين من الفقهاء وإن لم يدخل في دعوتهم؛ ولذلك أفتى العلماء بطرح كتب أبي القاسم البراذعي[2].

5- فتح العلماء والفقهاء بيوتهم للناس لفضح معتقدات الباطنية العبيدية, وكان أبو إسحاق السبائي يفتح داره ويأخذ في ذم العبيديين والتحذير منهم، وكان يكثر من ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم, وكانت داره كالمسجد لكثرة من يقصدها من الطلبة، وكذلك أحمد بن نصر الهواري، وأبو محمد بن يزيد الدباغ، واضطروا لذلك بعد أن منعهم العبيديون من التدريس في المساجد، واجتهد العلماء سرًا في تعميق عقائد أهل السنة وأصولهم وفقههم في قلوب أهل الشمال الإفريقي[3].

وهكذا الدعاة الربانيون والفقهاء العاملون مهما ضيق الطغاة والظلمة العتاة فإنهم لابد أن يجدوا سبيلاً لتعليم الناس ودعوتهم إلى الرشاد.

6- اجتهد علماء أهل السنة في غرس منهج أهل السنة في أبناء الكتاميين والصنهاجيين والبرابرة الموالين للعبيديين، ومما قام به العلامة أبو إسحاق الجبنياني وغيره، فإنهم كانوا يعلمون الأولاد الصغار أبناء حملة الدعوة العبيدية بحيل لطيفة وكانوا لا يأخذون منهم أجرًا, ترغيبًا لهم في الإقبال عليهم[4].

ويظهر من هذا أن الاهتمام بأبناء السياسيين والمفكرين العلمانيين ووزراء الدولة ومسئوليها وموظفيها كل قطر ضرورة دعوية شرعية وحركية نحو

(1) رياض النفوس (ج344/343/2).
(2) مدرسة الحديث في القيروان (ج78/1).
(3) المصدر السابق (ج79/2).
(4) المصدر السابق (ج80/2).

إقامة شرع الله والتمكين لدينه, أما العداء وقطع الطرق والوسائل للوصول إلى أوكار العلمانيين ونزع أبنائهم من صولة الشياطين فأمر لا يليق بأصحاب الدعوة من أهل السنة والجماعة.

7- ومن وسائل علماء أهل السنة في الذب عن عقائد السلف وسيلة المناظرة والجدال وإفحام الخصم أمام عوام المسلمين, وقد سجلت لنا كتب التاريخ مآثره النيرة في هذا المضمار العلامة الفقيه العالم الرباني أبو بكر القمودي الذي ناظر أبا العباس الشيعي مناظرة أفحمه فيها [(1)].

وإبراهيم بن محمد الضبي, وكان رجلاً صالحًا فقيهًا بارعًا في العلم وقتله بنو عبيد ظلمًا وزورًا.

وبرز في المناظرة أبو محمد عبد الله بن التبان إلا أن أبا عثمان سعيد بن محمد الحداد كان أقدرهم في هذا الباب, فقد كانت له مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الإسلام والذب عن السنة».

أشهر مناظرات الإمام أبي عثمان سعيد بن الحداد:

دعاه عبيد الله المهدي وبيّن له عبيد الله حديث «غدير خم»: «من كنت مولاه فعلي مولاه», حديث صحيح, فقال عبيد الله لأبي عثمان: فالناس لا يكونون عبيدنا؟ فقال له أبو عثمان أعز الله السيد لم يرد ولاية الرق, وإنما أراد ولاية في الدين, فقال: قال الله عز وجل: +مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِـــذُوا الْمَلاَئِكَـــةَ وَالنِّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ" [آل عمران: 79،80].

فما لم يجعله الله عز وجل لنبي لم يجعله لغير نبي, وعلي لم يكن نبيًا, وإنما كان وزير النبي ×, فقال عبيد الله له: انصرف لا ينالك أحد. ويذكر أن أبا عبد الله الشيعي قال له يومًا: القرآن يقر أن محمدًا ليس بخاتم النبيين.

فقال له: في قوله: +وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" [الأحزاب:40] فخاتم النبيين ليس رسول الله.

فقال له سعيد: هذا من واوات الابتداء, إنما هي من واوات العطف كقوله عز وجل: +هُوَ الأَوَّلُ وَالآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيــمٌ"

(1) انظر: مدرسة الحديث, (ج80/2).

[الحديد:3] فهل (أحد) يوصف بهذه الصفات غير الله عز وجل؟ وتكلم (عنده) فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبي موسى شيخ المشايخ وقام إليه بالرمح فمنعه أبو عبد الله من ذلك, فعطف على أبي عثمان فقال له: يا شيخ لا تغضب أتدري إذا غضب هذا الشيخ (لم يكن) يغضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف.

فقال أبو عثمان: لكني أنا (أغضب) لغضب (الله الواحد) القهار الذي «أهلك عادًا وثمود وأصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرًا»(1), وقد جمع الله للشيخ سعد الحداد جهارة الصوت وفخامة المنطق وفصاحة اللسان وصواب المعاني, عالمًا باللغة والنحو, وإن لحن في لفظة استغفر الله عز وجل, وكان إذا تكلف الشعر أجاده.

وذات مرة خرج لمناظرة «أبي عبد الله الشيعي» فخرج معه أهله وولده وهم يبكون فقال لهم: لا تفعلوا لا يكون إلا خيرًا, بيمن من له خرجت وعن دينه ذببت.

فلما دخل على الشيعي في قصر إبراهيم بن أحمد وكان حوله جماعة من أصحابه وجماعة مما ينسب إليهم العلم, ثم جلس, فقال أبو عبد الله الشيعي لإبراهيم بن يونس وقد قيل إنه: هذا الشيخ كان قاضيًا على هذه المدينة: بأي شيء كنت تقضي؟

فقال له إبراهيم: بالكتاب والسنة.

فقال له أبو عبد الله: فما السنة؟

فقال (له) إبراهيم: السنة السنة.

قال أبو عثمان: فلما سمعته على قوله «السنة.. السنة».

قلت لأبي عبد الله: المجلس مشترك أو خاص؟

فقال: مشترك.

فقال أبو عثمان: أصل السنة في كلام العرب: المثال الذي يتمثل عليه, قال الشاعر:

وجه غير مقرفة ... بها خال ولا ندب

أي صورة وجه ومثاله.

(1) انظر: رياض النفوس (ج60/2).

والسنة محصورة في ثلاث: الائتمار بما أمر الله به رسوله × والانتهاء عما نهى عنه, والائتساء به فيما فعل.

قال الشيعي: فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي × وجاءت به السنة من طرق؟.

فقلت له: انظر إلى أصح الخبرين نقلاً فآخذ بأصحهما, وأطلب الدليل على موضع الحق في أحد الخبرين, الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة, فلابد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين.

فقال الشيعي: فلو استووا في الثبات؟.

فقلت له: يكون إحداهما ناسخًا والآخر منسوخًا.

قال: فمن أين قلتم بالقياس؟

فقلت له: قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل.

قال: فأين تجد ذلك؟.

فقلت: قال الله عز وجل في كتابه العزيز: +يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ" [المائدة: 95].

فالصيد معلومة عينه, والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد (المعلومة عينه) ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكره علينا بالقياس والاجتهاد ومنه قول الله عز وجل: +يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ" [المائدة:95].

فلم يكله إلى حاكم حتى جعلهما اثنين ليتفقا ويجتهدا, قال أبو عبد الله الشيعي: إن ذوا عدل أولئك هم أهل العدل قوم مخصوصون بنص الآية.

قال: فقلت: هم الذين قال الله عز وجل فيهم في آية المراجعة +وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ" [الطلاق: 2] ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله عز وجل: +وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ" [النساء: 83] فالاستنباط غير منصوص.

ثم عطف (أبو عبد الله الشيعي) على موسى القطان فقال له: أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى؟

فقال له موسى: قال النبي ×: «من شربها فاضربوه بالأردية, ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي, ثم إن عاد فاضربوه بالجريد».

فقال له أبو عبد الله على النكير منه: أين هذا؟ أقول لك أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى, تقول: اضربوه بالأردية وبالأيدي ثم بالجريد؟.

قال أبو عثمان: فقلت له: إنما حد علي قياسًا حد القذف؛ لأنه إذا شرب سكر, وإذا سكر هذى, وإذا هذى افترى على الناس, ولم أمره إليه وهو حد القاذف»(1).

فقال لموسى القطان: أو لم يقل النبي ×: «أقضاكم علي»؟ فقال له موسى: تمام الحديث: «وأعلمكم بحلال الله وحرامه معاذ, وأرأفكم أبو بكر, وأشدكم في دين الله عمر» رضي الله عنهم أجمعين.

فقال له الشيعي: وكيف يكون أشدهم في دين الله, وقد هرب بالراية يوم حنين؟.

فقال له موسى: ما سمعنا بهذا ولا نعرفه, فقال أبو عثمان: قاتل ثم تحيز إلى فئة كما أنزل الله تعالى, قال الله عز وجل: +إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ" [الأنفال:16].

(فمن تحيز إلى فئة) كما أمر الله عز وجل فليس بفار.

فمال الشيعي بوجهه إلى بعض أصحابه فقال: معنى ما قاله الشيخ: انحاز إلى فئة كما أمر الله سبحانه.

فقال مجيبًا –هو يشير بيده- وأي فئة أكثر من رسول الله × وقد كان حاضرًا ولم يتحيز وكأنه تخافت في كلامه ويسمع من يليه.

فقلت: جاء عنه × أنه قال: «عمر فئة فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة» فسكت الشيعي(2).

وسأل أبو عبد الله الشيعي أبا عثمان الحداد فقال: ألا أوجب قول الله تعالى عند من سمعه: +وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ" [آل عمران:144] انقلاب أصحاب محمد ×.

فقال له أبو عثمان: «لا»؛ لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون على أعقابكم؛

(1) انظر: رياض النفوس (ج79/2).
(2) المصدر السابق (ج80/2).

لأن معنى أفإن مات أو قتل انقلبتم، معناه أفتنقلبون والاستفهامان إذا جاءا في قصة واحدة أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر, وهذا الاستفهام إنما هو في معنى التقرير بأن لا تنقلبوا على أعقابكم.

فقال له: فهل تجد في كتاب الله عز وجل نظيرًا يكون لهذا دليلاً؟

فقال له: نعم. قول الله عز وجل: +أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ" [الأنبياء:34], أي: إنك إن مت فهم لا يخلدون, فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر وكان لفظ الاستفهام من ذلك مرادًا به التقرير: «بأنهم لا يخلدون»(1).

وهكذا كان أبو عثمان سعيد الحداد في دفاعه ومناظرته لأجل نصر عقائد أهل السنة والجماعة.

ولما توفى رثاه الشعراء فقال فيه سهل بن إبراهيم الوراق:

لقد طرقت فيها منية	فيالك من خطب يحل عُرى الصبر
ق ع ادى سو وعيدًا به	اق بـ وبرءًا لدأه بـ الهجر
لـ ب ذا البلو الصبر ة	ا عثمان في الظلام القبر
رأ ى وفاته ه	ع ذر فف ي واسع العذر
لا الذي أمسى شجي في حلوقهم	ل الحياة إلى الحشر
ن المسلمين وسيفهم	ل الضلال والكفر
أليس هلال الأرض بل شمس جنها	جاها حين أمسيت بلا بدر
غاصت دقائق فكره	جوابًا عتيدًا في أدق من السحر (2)

هذه بعض الأساليب والطرق والمناظرات التي قام بها علماء أهل السنة في الذود والدفاع عن عقائد المسلمين, فعليهم من الله الرحمة والرضوان على ما أبلوا وأقاموا به من جهاد ودعوة وفداء.

قام شعراء أهل السنة بدور مجيد في الدفاع عن الإسلام والهجوم على بني عبيد بالسنان واللسان, وكان علي بن عبيد أشد من السيوف القواطع, واحتل مركز الصدارة في هذا الباب الشاعر المجيد أبو القاسم الفزاري, ومن أشعاره ما قاله في قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان

(1) رياض النفوس (ج83/2).
(2) المصدر نفسه (ج115/2).

التي قال فيها:

ة أعمـ ت وعمـ ت ... ي أو كف ور

دائن والبـ وادي ... نهـ ا الـ دهور

اقت ك ل أرض ذات ع رض ... ماق ل والقصد ور

روان وسـ اكنيها ... عٌ دير

بأهلهـ ا علمًا وخُـ رًا ... ه الصـ دور

ة وأمـ ن ... سـ تر سـ تير

علمـ اء فيهـ ا ... ار لا ور

علمـ اء قـ دمًا ... إذالهعُ م نظيـ ر

اد خيـ ار ... أوائـ ل والأخيـ ر

سـ بايا ك ل أرض ... تبدو بـ ه المغيـ ر

عظائمهـ ا جميعًا ا ... م تلـ ك الشـ رور

كنّا قلوبًا ات ... هـ ا ضـ رير

وآ ينا وكنـ ا ... لأهم شـ طير

ا لهـ م طعامًا ا ... الكالمقدُ وم دور

ا ثـ واب الله ذ رًا ... ـ نهم شـ كور

روان وسـ اكنوها ... امهم والمـ خ ريـ رُ (1)

ثم مضى في القصيدة إلى أن قال:

ا كمـ ا لهـ ـ ون ... ه وعـ ور

اط بنـ ا ولكـ ن ... حفـ ظ رب العـ رش سُور

بحـ ر وإذ ا ... ى القضـ اتئ البحـ ور

رآن ذ أوي ... البـ يض الـ ذكور

(1) رياض النفوس (ج2/493).

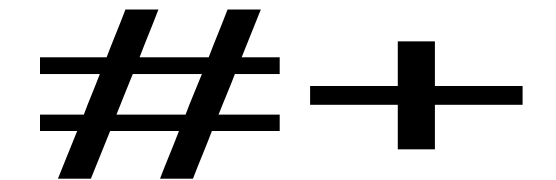
البوارق مرهف ات الح رائم والثغ ور
وسُ اليهن شد هب م أ, ا النحـ ور

إلى أن قال:

ن خ وف وأم ن ذُ عثت الأم ور
لله والصـ ديق حبًّ ا ـد ه ثُ عادة والحبـ ور
ب القـ وم طَ رًا ربهم غف ور
تي وأم ي ا النـ ذير
ي مـ ا حـ ه ثن اء ان ينجـ د أو يغ ور (1)

* * *

(1) انظر: رياض النفوس (ج494/2).



الدالة الصنفاحتة

تمهيد

استمال خلفاء الدولة العبيدية القبائل البربرية الصنهاجية واستبدلوها بدلاً من القبائل الكتامية وأسندوا إليها الأمور المهمة في الدولة، وارتفع نجم الصنهاجيين في زمن عائلة بني زيري الصنهاجية التي استطاعت أن تثخن في ثورة أبي يزيد الخارجي, فأهدى العبيديون للصنهاجيين حكم إفريقية والمغرب، ومؤسس الدولة الصنهاجية هو أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي (362- 373هـ) الذي افتتح سنوات حكمه بقمع الثائرين وتمهيد البلاد.

المبحث الأول
أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي
(362- 373هـ/ 972- 983م)

أصبح يوسف بلكين بن زيري واليًا على بلاد إفريقية، وهو أول حاكم لبلاد المغرب من أصل بربري بعد الفتح الإسلامي, وكان متفانيًا في خدمة العبيديين وتوسيع أملاكهم، وإشاعة العنف بين قبائل صنهاجة وقبائل زناتة، واستعمل الحاكم الصنهاجي أبو الفتوح القوة والعنف والشدة للقضاء على قبائل زناتة، واستطاعت الدولة الأموية في الأندلس أن تستفيد من هذا الصراع ووجهت ضربة ماكرة للدولة العبيدية فدعمت قبائل زناتة بكل ما تملك حتى استطاعت أن تقف في وجه الصنهاجيين التابعين للعبيديين، وكانت سياسة الصنهاجيين مبنية على العنف والقوة مع الزناتيين فلم يسعوا لكسب ودهم أو استمالتهم, واستغلت الدولة الأموية هذا الصراع حتى فصلت المغرب الأقصى عن سيادة بني زيري[1].

وأظهر الأمير بلكين نشاطًا واسعًا وعملاً دؤوبًا، وكان محافظًا على تبعيته للعبيديين وولائه للمذهب الإسماعيلي الباطني، إلا أن تشدده وتشدد الأمراء الذين جاؤوا بعده بمطالبة الناس بالتشيع، فسح المجال نسبيًا أمام علماء أهل السنة لنشر السنة، وبدأت الحياة العلمية تعود إلى المساجد والكتاتيب شيئًا فشيئًا, غير أن تلك المظاهر الرسمية من التبعية لحكام مصر والدعوة لهم على المنابر كانت تقلق العلماء، وأسهمت في إيجاد هوة عميقة بينهم وبين حكام بني زيري, فمضوا في محاربة هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا متحمسين للدعوة الإسماعيلية, والتف أهل الشمال الإفريقي حول علمائهم، وواصلوا مقاطعة الدولة، غير أن هؤلاء الحكام لم يستطيعوا الإعلان بموافقة علماء أهل السنة خوفًا على سلطانهم,

(1) موسوعة المغرب العربي (ج2/ 24-30).

وأحس أهل القيروان بذلك فراح علماؤهم يعملون جاهدين على نشر السنة وآراء السلف فعجت حلقات العلماء بطلاب العلم في القيروان من جديد, وكثرت مؤلفات في بيان دين الإسلام الصحيح, وكان التخلص النهائي من أتباع العبيديين وانتصار أهل السنة على الروافض في الشمال الإفريقي على عهد الأمير السني والسيف القاطع والطود المنيف الأمير المعز بن باديس.

* * *

المبحث الثاني
المعز بن باديس الصنهاجي
(406- 449هـ)

قال عنه الذهبي: (صاحب إفريقية, المعز بن باديس بن منصور بن بُلُكين بن زيري بن مناد الحميري, الصنهاجي, المغربي, شرف الدولة ابن أمير المغرب)[1].

نودي به أميرًا يوم السبت الثالث من ذي الحجة سنة 406هـ بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام[2].

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يتسللوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة وأثروا في بعض الوزراء والأمراء الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة.

وأخص بالذكر العلامة أبو الحسن الزجال الذي اجتهد على الأمير المعز بن باديس في تربيته على منهج أهل السنة والجماعة, وأعطت هذه التربية ثمارها بعد ما تولى المعز إفريقية, وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الذين كانت الدولة دولتهم, فظهر هذا العالم الفاضل بأخلاق ودين وعقيدة سليمة, ومبغضًا للمذهب الإسماعيلي الشيعي.

واستطاع أن يزرع التعاليم الصحيحة في عقلية وفكر المعز بن باديس الذي تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي.

وهذا درس لنا نحن الدعاة في الاهتمام برجالات الدولة وأبنائهم من أصحاب المناهج العلمانية والبعيدة عن هدى المولى عز وجل, ولكن شعار العاملين في هذا المجال قوله تعالى: +وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَـــرُوا عَلَـــيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا" [الكهف:19،20].

وقد وصف المؤرخون المعز بن باديس بأوصاف في غاية الروعة والجمال, فقال فيه الذهبي: «وكان ملكًا مهيبًا, وسريًا شجاعًا, عالي الهمة, محبًا للعلم, كثير البذل مدحه الشعراء, وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسمًا لمادة الخلاف, وكان يرجع إلى الإسلام, فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي, فبعث إليه المستنصر يتهدده,

---

(1) سير أعلام النبلاء (ج140/18).

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص 286).

فلم يخفه»[1].

ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الذي هدده فيه وقال له: لا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم[2].

وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز تدرج في عدائه للإسماعيلية ولحكام مصر, وظهر ذلك في عدة أمور منها: أنه قطع الخطبة للعبيديين سنة 435هـ في جيشه وديوانه فبدأ في تطهير دولته من المعتقدات الكفرية ولم يتلفظ بسب أصحاب رسول الله, وعزل العاملين عنه من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفي الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه.

وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الجليل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله, وانطلق الشعراء في وصف ذلك ومدح المعز ودونوا تلك البداية, فقال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

ون بك ... ل أرض ... أرض القير ... روان

وقال آخر:

دين ع ... ش ف ... ي رفع ... ة ... اط وج ... ذل

أرض ... يت ي المصد ... طفى ... ملتنية ... ين السد ... فل

ف ... يهم سد ... نة ... أقاصي الأرض في كل الدول[3]

استمر المعز في التقرب إلى العامة وعلمائها وفقهائها من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر, فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته وأعلن انضمامه للخلافة العباسية, وغير الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم, وحرق أعلام العبيديين وشعاراتهم, وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها سنة 441هـ وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكتب على الآخر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85].

---

(1) سير أعلام النبلاء (ج140/18).
(2) تاريخ الفتح في ليبيا, لطاهر الزاوي, ص (289).
(3) تاريخ الفتح في ليبيا, لطاهر الزاوي, ص (289).

وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة والإباضية.

وفي سنة 443هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له.

وكان أول من قاد حملة التطهير على الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضلة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته أبو الحسن[1] المتوفي عام 432هـ.

واشتاط الحقد الباطني وتفجرت براكين الغضب في نفوسهم وقرروا الانتقام من قائد أهل السنة في الشمال الإفريقي ومن أهله الذين فرحوا بعودة بلادهم لحظيرة أهل السنة, فانعقد في القاهرة مجلس رافضي باطني إسماعيلي بقيادة الخليفة العبيدي وخرجوا برأي شيطاني يفيد بمهاجمة الدولة السنية الصنهاجية الزيرية بقبائل بني سليم وبني هلال, فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه القبائل المتعصبة, وإن انتصر بنو سليم وبنو هلال يكونوا بذلك انتقموا من عدوهم اللدود المعز بن باديس, وكان الذي تبنى هذه الفكرة الوزير العبيدي أبو محمد بن علي اليازوري الذي شرع في إغراء القبائل المقيمة على ضفاف النيل وأمدهم بالمال والسلاح والكراع وأباح لهم برقة والقيروان, وما يكون تحت أيديهم, واتصل العبيديون بالمعارضين للمعز وأمدوهم بما يملكون من مال وسلاح وعتاد.

وبدأت حلقة الصراع العنيف بين المعز بن باديس والقبائل العربية المدعومة من الروافض العبيديين.

* * *

(1) المصدر السابق, ص (290، 291).

المبحث الثالث
زحف بني هلال وبني سليم وغيرهما من القبائل إلى الشمال الإفريقي

تمهيد:

كانت قبائل بني هلال وبني سليم تسكن الجزيرة العربية، وكانت مضاربها متوزعة حول المدينة ومكة والطائف ونجد، واستطاع القرامطة أن يستغلوهم في حروبهم ضد الخلافة العباسية والدولة العبيدية, وتأثر بعض زعماء هذه القبائل بأفكار وعقائد القرامطة, ولم يكن تأثيرهم عميقًا وإنما كانت له أسباب اقتصادية ونزعة تمردية على الانقياد للدولة العباسية، وفي قتال القرامطة مع العبيديين لعبت هذه القبائل دورًا بارزًا في الشام وكانت لها شوكة ومنعة وعدة وعتاد.

فاستطاع الأمير العبيدي في مصر أن يجلبهم ويقربهم له بالعطايا والهدايا والأموال، واستجاب لطرح الخليفة العبيدي الذي كان حريصًا على وجود العنصر العربي في دولته, وأعطتهم الدولة العبيدية أراضي خصبة على ضفاف النيل، وأعطت القبائل ولاءها للدولة العبيدية، وتبنت شعارات الدولة الباطنية لجهلها وبعدها عن فهم حقيقة دينها، وأخلصت للخليفة العبيدي الذي قرر الانتقام من بني زيري بن باديس بهذه القبائل ذات الشوكة والشكيمة والمنعة والدراية بالحروب, وخصوصًا أن الدولة العبيدية كانت لا تستطيع إرسال جيوشها بسبب انشغالها بالقرامطة وبمشروعاتها بالشام والمشرق، ولأن طوائف من جيشها من نفس جنس المغاربة؛ بل من قادتهم من هو من نفس قبيلة المعز بن باديس، ولاسيما أن الدولة أهملت هؤلاء القادة والجنود منذ أيام العزيز والخليفة العبيدي.

وكانت القبائل العربية التي في صعيد مصر بعضها يرجع للفتح الإسلامي قد ترك مراكزهم للجزيرة العربية ومجيئهم إلى مصر في زمن العزيز العبيدي.

واشتهرت تلك القبائل في صعيد مصر بفعل القلاقل وإشاعة الاضطراب والفوضى في البلاد، فكانت هذه المرة فرصة ذهبية للتخلص منها والانتقام من عدو الدولة وقهره والتشفي منه.

وينسب للمستنصر قوله: «والله لأرمينه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة»، فدعا العرب وأباح لهم مجاز النيل إلى المغرب، وكانت ممنوعة عنه من قبل ذلك,

فعبر منهم خلق عظيم[1].

ع الأمير المستنصر العبيدي مع زعماء القبائل العربية ومنحاهم بالمساعدة المالية والمعنوية وأعطاهم خيولاً وأسلحة وعتادًا وأموالاً ولكل ما يساعدهم في تحقيق أهدافه الشريرة لهدم إفريقية يفعلون فيها ما يشاءون, وقال لهم: «لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرن بعدها»[2].

وعندما تحركت جموع العرب في 442هـ - 1050م أرسل الوزير العبيدي الحاقد إلى المعز بن باديس رسالة قائلاً له: أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً, وحملنا عليهم رجالاً كهولاً, ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً»[3].

فسيطرت هذه القبائل على برقة بدون مقاومة تذكر, وكانت برقة قد تمردت على العبيديين أيام الحاكم العبيدي لأنها كانت تابعة للمعز أيام المستنصر, وأحرقت المنابر التي كان يخطب فيها للعبيديين, وأحرقت راياتهم, وأعلنت دعوة القائم العباسي, وواصلت القبائل العربية زحفها إلى طرابلس وضواحي تونس[4].

وكان تعداد هذه القبائل المهاجمة على الشمال الإفريقي أربعمائة ألف, ولحقتها أفواج تترى. ويذكر بعض المؤرخين أن العدد الكلي وصل إلى مليون نسمة على مراحل متعددة, استقرت هذه القبائل في برقة أرسلت أحد شيوخها وهو مؤنس ابن يحيى بن مرداس من رياح أحد بطون بني هلال لينزل ضيفًا على المعز بن باديس, فأكرمه ... المعز وأحسن في ضيافته, وعرض عليه المعز أن يتخذ من بني عمه رياح جندًا فأشار عليه مؤنس بألا يفعل لعلمه بعدم انقيادهم واختلاف كلمتهم فلم يقتنع المعز بما قاله مؤنس.

وقال مؤنس للمعز: إنهم قوم لا طاقة لك بهم.

فقال له المعز: هم دون ذلك, ... مؤنس إهانة للعرب, وظن المعز مؤنسًا لا يريد أن يكون لغيره سلطان على قومه, وصارحه بذلك.

فلما رجع مؤنس إلى قومه رغبهم ووصف لهم ما من خيرات إفريقية وأبهة المعز ما رغبهم في الإسراع بالرحيل, فانسابوا في أرض إفريقية في جموع لا يدرك أولها ولا ينتهي آخرها[5].

ومن أشهر القبائل العربية التي زحفت على مملكة المعز بن باديس بنو سليم

---

(1) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها, د. عبد المنعم ماجد, ص (223).
(2) انظر: تاريخ الفتح العربي, ص (294).
(3) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها, ص (243).
(4) المصدر السابق, ص (224).
(5) انظر: تاريخ الفتح العربي, ص(295).

بن منصور, وبنو هلال بن عامر وهم من مضر, وكانت زغبة والأثبج وعدي, ورياح من الهلاليين من بني عامر بن صعصعة وبني هاشم بن معاوية بن بكر, وهذه القبائل مضرية عدنانية.

وقبيلة كهلان وهي قحطانية, وقبائل أخرى كثيرة غير مشهورة.

وعندما رحل الأثبج وبنو رياح وعدي إلى إفريقية يريدون اللحاق بالقيروان, قال لهم مؤنس بن يحيى: رأيت أن تحتاجوا إلى تدبير, قالوا: بماذا تنصح؟ فبسط لهم بساطًا فيه شيء, وقال لهم: من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه؟ فقالوا: لن يقدر على ذلك؟ فقال: أنا, فطوى البساط وأتى طرفه وفتح منه مقدار ذراع ووقف عليه, ثم فتح شيئًا آخر ودخل إليه وقال: هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب, املكوها شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فأتوها فإنكم تملكونها, فقال له رافع بن حماد -أحد رؤساء العرب-: «صدقت يا مؤنس, والله إنك لشيخ العرب وأميرها, قد قدمناك علينا, ولا نقطع أمرًا دونك».

وقد اقترعوا على البلاد فخرج لبني سليم شرقيها, ولبني هلال غربيها: طرابلس وقابس, وانضم بنو جشم إلى بني هلال.

وكان في العرب كثير من غير بني هلال وبني سليم من فزارة وأشجع من بطون غطفان, وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن, وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية, والمعقل من بطون اليمنية, وكلهم مندرجون في بني هلال وفي الأثبج بالخصوص؛ لأن الرياسة كانت عندهم للأثبج وهلال فأدخلوا فيهم.

وكانت الأثبج من الهلاليين أوفر عددًا, وأكثر بطونًا, وكان التقدم لهم في حملوكتهم, ومن بطونهم الضحاك وعياض ومقدم والعاصم ولطيف ودريد, وكرفة, وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم.

وكان لهم القوة, وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية[1], ومن أشراف رجالات العرب: حسن بن سرحان, وأخوه بدر, وفضل بن ناهض, وهؤلاء من دريد بن الأثبج.

ومنهم ماضي بن مقرب, وسلامة بن رزق في بني كثير من بطون كرفة, من الأثبج, وذياب بن غانم, وينسبونه في بني ثور, وموسى بن يحيى, وينسبونه في مرداس رياح, لا مرداس سليم, وهو من بني صبح, ومن مرداس رياح.

---

(1), (2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (297).

ومـ نهم زيـ د بـ ن زيوينسلن, بونه فـ ي الضيف حالكس بـ ن أبـ ي الغيـ ث وأخوه وعلفضلمر ل بـ رونأبد يهمعة يي, مـ رداس وكـ ل هـ ؤلاء يـ ذكرون فـ ي أشعارهم[1].

المبحث الرابع
الصدام المسلح بين المعز بن باديس والقبائل العربية

ابن الأثير ذكر دخول العرب إلى إفريقية في حوادث عام 442هـ - إلى أن قال: «ثم قدم أمراء العرب إلى المعز بن باديس فأمرهم وبذل لهم مالاً كثيرًا, فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان, بل شنوا الغارات, وقطعوا الطريق, وأفسدوا الزروع, وقطعوا الثمار, وحاصروا المدن, فضاق بالناس الأمر, وساءت أحوالهم, وانقطعت أسفارهم, ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط, فحينئذ احتفل المعز, وجمع عساكره, فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها رجَّالة, وسار حتى أتى جندران, وهو جبل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام, وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس, والصحيح أنهم كانوا على قدر جيش المعز على قول صاحب موسوعة المغرب العربي, فلما رأت العرب عساكر الصنهاجيين والعبيد مع المعز هالهم ذلك, وعظم عليهم, فقال لهم مؤنس بن يحيى: ما هذا يوم فرار؟ فقالوا: أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر؟ قال: في أعينهم, فسمي ذلك اليوم يوم العين, والتحم القتال, واشتدت الحرب, فاتفقت صنهاجة على الهزيمة, وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعلهم, ويقتل أكثرهم, فعند ذلك يرجعون على العرب, فانهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع المعز, فكثر القتل فيهم, فقتل منهم خلق كثير, وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب فلم يمكنهم ذلك, واستمرت الهزيمة, وقتل من صنهاجة أمة عظيمة, ودخل المعز القيروان مهزومًا, على كثرة من معه وأخذ العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره[1].

وقد وصفت كتب التاريخ هذه الواقعة بأبشع ما توصف به الحروب من فظاعة القتل وكثرة القتلى نتيجة لصمود كل من الجيشين للآخر في سبيل دحر خصمه والقضاء عليه, وقال الشاعر العربي علي بن رزق الرياحي أبياتًا في هذه المعركة يصف فيها ما دار بينهم وبين المعز:

اديس لأحـ زم مالـ ك ـ مـ ـا لديـ ـه رجـ ال

ـا غلبـ ـت لـ ـه ـا إننا القتـ ال[2]

ولما كان يوم النحر من هذه السنة 442 جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس, وهجم على العرب على حين غفلة وهم في صلاة العيد, فركبت العرب خيولهم وهجمت على جيوش المعز فهزمته وأثخنت فيهم قتلاً, فجمع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير, وهاجم العرب في منازلهم,

---

(1) الكامل في التاريخ (ج153/6).
(2) تاريخ الفتح العربي, ص (299).

واحتدم القتال وتبارز الشجعان فانكسرت شوكة صنهاجة وولت زناتة الأدبار، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتًا عظيمًا لم يُسمع بمثله وتناقلته الركبان، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية، وأحصي من قتل من رجال المعز فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة، ثم أقبلت العرب حتى استقرت بمصلى القيروان، ووقعت حروب طاحنة مع المعز، فقتل من المنصورية ورقادة خلق كثير، فلما رأى ذلك المعز سمح لهم بدخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء، فلما دخلوا استطالت ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربي وآخر عامي، وكانت الغلبة للعرب، وأشار المعز على الرعية سنة 446هـ بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب[1].

وبعد أن رتب أمور العاصمة الجديدة ونقل لها كل وظائف الدولة انتقل المعز إلى المهدية 449هـ فتلقاه ابنه تميم ومشى بين يديه واستولى العرب على القيروان وهدموا حصونها وقصورها وقطعوا الثمار وخربوا الأنهار، وكانت الوقائع والمعارك والحروب التي خاضها المعز مع العرب درسًا قاسيًا له، أقنعته بألا طاقة له بالعرب، وأيقن أن العبيديين مكروا به مكرًا عظيمًا، وكان من أسباب الهزائم المتلاحقة التي لحقت بالمعز قوة العرب وشجاعتهم، وخذلان جنوده من البرابرة الذين لا زالوا يعظمون الخلافة العبيدية حيث خذلوه في أكثر من موقع، وتقريب المعز لعبيده مما أوغر نفوس صنهاجة وزناتة عليه.

وعندما استقر المعز في المهدية فوض أمر الدولة وشئون الحكم لابنه تميم الذي آنس فيه والده حسن التصرف وأصالة الرأي.

وبقى هذا المجاهد العظيم في ضيافة ابنه إلى أن توفاه الله سنة 453هـ.

ويشهد التاريخ الإسلامي للبربر الفضل بعد الله في القضاء على عقائد الباطنية الإسماعيلية في الشمال الإفريقي، وكان درعًا حصينًا لمنهج أهل السنة وقدمهم في دولته وكلفه ذلك ثمنًا باهظًا من قبل أعدائه.

كما يشهد التاريخ للمعز بن باديس وأتباعه من البرابرة أنهم تبنوا منهج أهل السنة والجماعة، وربطوا شمالهم الإفريقي بالخلافة الشرعية العباسية في بغداد، ويشهد التاريخ أن المعز أصبح علمًا من أعلام المسلمين ورمزًا من رموزهم، ودخل تاريخهم من أوسع أبوابه مسجلاً أعمالاً عظيمة، ونرجو من الله أن تكون في ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وفاة المعز بن

(1) الكامل في التاريخ (ج154/6).

باديس وولاية ابن المعز فقال: «في هذه السنة توفي المعز بن باديس صاحب إفريقية, من مرض أصابه, وهو ضعف الكبد, وكانت مدة ملكه سبعًا وأربعين سنة, وكان عمره لما ملك إحدى عشرة سنة, وقيل: ثماني سنوات وستة أشهر.

وكان رقيق القلب, خاشعًا, متجنبًا لسفك الدماء إلا في حدٍّ, حليمًا يتجاوز عن الذنوب العظام, حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه, مكرمًا لأهل العلم, كثير العطاء لهم, كريمًا, وهب مرة للمستنصر الزناتي وكان عنده وقد جاءه هذا المال, فاستكثره, فأمر به فأفرغ بين يديه, ثم وهبه له, فقيل له: لم أمرت بإخراجه من أوعيته؟ قال: لئلا يقال: لو رآه ما سمحت نفسه به, وكان له شعر حسن.

ولما مات رثاه الشعراء, فمنهم أبو الحسن بن رشيق فقال:

ي وإن ط ال المدى هَلَكُ ة يبق ى, ك

ع عقاب ه فرم ى ينهيُ أركان ذّ ه الفل ك

أيقفقيي ى قدًّ ي خزائن ه لما وك, م ا ملك وا

ان إلا حسد الله ق در ذين بغ وا ف ي الأرض وانهم وا

ض للم وت بح ر وغ ى ر البحار, ت ب ه, رك

د بجُنيح اطير مقد رة مه إبريزه ا الس كك

وح المعز وروح الشمس قد قبضا د ياء يصد عد الفل ك[1]

* * *

(1) تاريخ الفتح العربي, ص(214).

المبحث الخامس
أبنـــــاء المعـــــــز وأحفـــــــاده

أولاً: تميم بن المعز:

ولد بالمنصورية في الثالث من رجب سنة 422هـ وولاه أبوه على المهدية سنة 445هـ, ثم أسندت إليه ولاية إفريقية من والده المعز, وسار في الناس بسيرة حسنة, وقد أهل العلماء وكان شجاع القلب ذا عزيمة عالية وسياسة وبدهاء, استطاع أن يرجع المدن التي سلبت من والده, واستمال زعماء العرب بالمال والعطايا وبالجهاد وأظهر معهم الزواج منهم وبذل لهم الكياسة والفطانة والسياسة واستطاع أن يضم مدينة سوسة في عام 455هـ بعد أن قضى على المقاومة المسلحة التي واجهته[1].

وفي سنة 457هـ حاول الناصر بن علناس الحمادي زعيم الدولة الحمادية احتلال المهدية والقضاء على ملك تميم وجهز جيشه من صنهاجة وزناتة وبني هلال, فاستدرج تميم بن المعز القبائل العربية للوقوف بجانبه وأعطاهم السلاح والمال واستطاع أن يقضي على جيش الناصر وقتل منهم 24 ألفاً, وترك الغنائم والأموال للعرب التي استغنت بذلك وقال تميم: قبيح بي أن آخذ سلب ابن عمي فأرضى العرب بذلك[2].

وفي سنة 484هـ ضم تميم مدينة قابس بعد أن تولى أمرها عمرو بن المعز, وكان قبل عمرو رجل يسمى قاضي بن إبراهيم بن بلمونو, وكان ضمه لقابس بالجيوش الجرارة فقال له أصحابه: لما كان فيها قاضي توانيت عنه فلم تؤاخذه وتركته, فلما كان فيها أخوك جردت إليه العساكر, فقال: لما كان فيها غلام من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا, وأما اليوم وابن المعز بالمهدية وابن المعز بقابس فهذا لا يمكن السكوت عليه.

وفي فتحها يقول ابن خطيب سوسة القصيدة المشهورة التي أولها:

ضحك الزمان, وكان يلقى عابسًا ... لما فتحت بحد سيفك قابسا

[illegible] ... ت ثمارها ... لما [illegible] ان ... ل الغارسا

[illegible] ن في زرق الأسنة خاطبًا ... ل ال ... بلاد عرائسا

[illegible] ن المعز بفتكة ... أكن ... اف قابس قابسا

---

(1) الكامل لابن الأثير (ج6/234).

(2) المرجع السابق (ج2/243).

ولَـ وا هذ اك مصد انعا ا ومخالَ دًا, ا
قلـ بٌ, سـ اوس اء اليق ين, عند ه وساوسـ ا [1]

وفي هذه السنة 493 استطاع تميم أن يضم مدينة صفاقس وأن ينتزعها بالقوة من حاكمها المتمرد حمو بن فلفل البرغواطي[2].

ويعتبر عصر تميم أزهى من عصر والده فيما بعد دخول القبائل العربية.

وكان يضرب المثل بالجود والشجاعة والكرم والعطلة الملك فيه ابن كثير: «من خيار الملوك حلمًا وكرمًا وإحسانًا ملك سالفًا وأربعين سنة وعمر تسعًا وتسعين سنة وترك من البنين أنهد من مائة ومن البنات ستين بنتًا وملك بعده ولده يحيى, ومن أحسن ما مدح به الأمير تميم قول الشاعر:

حـ وأعلى ما سمعناه في الندا روي مذ قديم
رويه السا يد ن البحر عن كف الأمير تميم [3]

وكان عالمًا فاضلاً, وشاعرًا رقيق العاطفة, ومن شعره:

فإم ا الملـ وك في شي رفعه على تاريخ في أعلى السرير
وإم ا الملـ وت بسلطان يفلق العتا بخوالل د أبد الدهور [4]

وقال ابن الأثير: «كان شهمًا شجاعًا, ذكيًا, وله معرفة حسنة, وكان حليمًا, كثير العفو عن الجرائم العظيمة, شديد حسنة فعرفه أذن, وقعت حرب بين طائفتين من العرب, وهم عدي ورياح, ... وأهدروا دماء في صلحهم مما يضر به وبلاده فقال أبياتًا يحرض على الطلب بدمه, وهي:

متى كانت دماؤكم تُطل أما فيكم أبى مستقل
يا ل الملإن فشلتم ت أوائلكم م تُذلّ
لاب الثأر حتى يكم مضحلّ
فيه العار والي تفل, ولا تُذلّ

---

(1) الكامل في التاريخ (ج6/367).
(2) تاريخ الفتح العربي, ص (302).
(3) البداية والنهاية, (ج12/181).
(4) تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (302).

فعمد أخوة المقتول فقتلوا أميرًا من عدي, واشتد بينهم القتال, وكثرت القتلى, حتى أخرجوا بني عدي من إفريقية(1).

ومن أقواله التي صارت مثلاً في إفريقية: «أسرار الملوك لا تذاع»(2).

وانطوت صفحة حياته في عام 501هـ بعد أن عادت للدولة الزيرية هيبتها.

ثانيًا: يحيى بن تميم بن المعز بن باديس:

عهد إليه أبوه بالولاية في حياته في السادس عشر من ذي الحجة سنة 497هـ, واستقبل بالأمر يوم وفاة أبيه, وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر وعشرون يومًا فكان موفقًا(3).

ولما استقر في الملك جهز أسطولاً إلى جزيرة جربة, بسبب أن أهلها يقطعون الطريق ويأخذون التجار, فحاصرها وضيق عليها, فدخلوا تحت حكمه, والتزموا ترك الفساد, وضمنوا صلاح الطريق(4).

كان عالمًا بالأخبار وأيام الناس والطب, وكان مغرى بالكيمياء, وحاول ثلاثة من الباطنية قتله فدخلوا عليه زاعمين أن لهم دراية بالكيمياء إلا أن الله نجاه منهم.

قال الذهبي: وقد وفد ليحيى ثلاثة غرباء, وزعموا أنهم يعلمون الكيمياء فأحضرهم ليتفرج وأخلاهم, وعنده قائد عسكره إبراهيم, والشريف أبو الحسن, فسل أحدهم سكينًا, وضرب الملك, فما صنع شيئًا, ورفسه الملك فدحرجه, ودخل مجلسًا وأغلقه, وقتل الآخر الشريف, وشد إبراهيم بسيفه عليهم, ودخل المماليك, وقتلوا الثلاثة, وكانوا باطنية, أظن الآمر العُبيدي ندبهم لذلك»(5).

وكان كثير المطالعة للكتب, جيد المداراة لأحوال دولته, وكان رحيمًا للضعفاء شفيقًا على الفقراء يطعمهم في الشدائد فيرفق بهم, ويقرب أهل العلم والعقل من نفسه, وساس العرب في بلاده فهابوه وانكفت أطماعهم, وكان له نظر حسن في علم النجوم, وكان حسن الوجه على جانبيه شامة, أشهل العينين مائلاً في قده إلى الطول, دقيق الساقين(6).

وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه, وخلدوا مديحه في دواوينهم, ومن شعرائه أبو الصلت بن عبد العزيز بن أمية بن أبي الصلت

(1) الكامل (ج6/485).
(2) المصدر السابق.
(3) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (303).
(4) انظر: التذكار, ص (39).
(5) سير أعلام النبلاء (ج19/414).
(6) وفيات الأعيان (ج6/214).

الشاعر الذي عاش في كنفه بعد أن جاب البلدان,وله في يحيى مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن, ومن جملة ما قاله من مديحه قصيدة:

فارغ ب بنفسد ك إلا ع ن د فالصحوغ د لجم ع ب ين الب أس والج ود
ك دأب يحي ى ال ذي أحييت مو ت الرجاه ه اء بإنج از المواعيد
معط ى الص وارم والهي ف الن جواعرد الص لادم والب زل العيلا د
أش م أش وس مضدعل روبي بأشرادقيف رع ال نجم معة ود
إذا ب دا بس رير المل رأيك محتبيًا يولد ف ي مح راب داود

إلى أن قال:

ه ذي م وارد يحي ى غير رذالطريق بة ق إليهم ا غي ر مس دود
م س يوفك فيم ا أن ت طالبالسه يوف قضد اء غي ر م ردود (1)

وتوفى الأمير يحيى سنة 509هـ متأثرًا مرض أصابه بعد الاعتداء عليه من قبل البلاطنيين الذين حاولوا قتله ولازمه المرض إلى أن توفى(2) وقال ابن الأثير كانت وفاته يوم عيد الأضحى فجوءة,وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة أشهر وتوفي, ثم ملكه ثماني سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يومًا, فخلف ثلاثين ولدًا, بن الجبار بن محمد بن حمديس الصلقي يرثيه ويهنئ ابنه عليًا بالملك.

فقال:

ما أغمد الغضب إلا جر ولا الذكر ى القم ر حت ى بد دا قم ر
بم وت يحي ى أمي ت الن اس كلهم حت ى إذا م ا عل جيٌّ اءهم نش روا
إن يبعث وا بس رور م ن تملك وعينهم أبي ا م ه دمعه ا هم ر
شق قت جي وب المع الي بالأسف لي أف ق علي ه الأنج م الزه ر
وق ل لابن تم يم ح فكزن مالهم ا زن عظ يم في ه محتق ر
ق ام ال دليل ويحي ى لا حلين المنلق ه ة لا تبق ى ولا ت ذر (3)

(1) وفيات الأعيان (ج215/6).
(2) ابن عذارى (ج306/1).
(3) الكامل (ج524/6).

ثالثًا: الأمير علي بن يحيى بن تميم بن المعز:

ولد يوم 15 من صفر سنة 499هـ ولاه والده على صفاقس وتولى الحكم بعد وفاة والده.

وبعد عامين من حكمه جهز علي أسطولاً في البحر وأرسله إلى مدينة قابس وضرب عليها حصارًا, ذكر ابن الأثير السبب في ذلك فقال: «وسبب ذلك أن صاحبها رافع بن مكن الدهماني أنشأ مركبًا بساحلها ليحمل التجار في البحر, وكان ذلك آخر أيام الأمير يحيى, فلم ينكر يحيى ذلك لعادته في المداراة, فلما ولي علي الأمر أنف من ذلك وقال: لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوئني في إجراء المراكب في البحر بالتجار, فلما خاف رافع أن يمنعه علي التجأ إلى الفرنج يستعين بهم على إجراء مركبه في البحر, وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس فاجتازوا بالمهدية فحينئذ تحقق علي ما كان يكذبه.

فلما مر أسطول رجار بالمهدية أخرج علي أسطوله في أثره فوصل إلى قابس, فلما رأى صاحب أسطول الفرنج المسلمين لم يخرج مركبه, فعاد أسطول الفرنج, وأقام أسطول علي يحصر قابس مضايقًا لها ثم عادوا إلى المهدية»(1).

وبعد ذلك أراد رافع أن يحاصر المهدية وجمع شتات الأعراب وجهز جندًا وزعم أنه يريد الدخول في طاعة الأمير علي إلا أن الأمير لم تنطل عليه الحيلة وحاربه وكسر شوكة رافع حتى تدخل بعض الأعيان من العرب وغيرهم للصلح بين الطرفين(2).

وشعر الأمير علي بن يحيى بخطورة زعيم صقلية رجار عليه فأصدر أوامره لتجديد الأسطول وإعداده لدحر قوات رجار البحرية وكاتب المرابطين بمراكش في الاجتماع معهم على الدخول إلى صقلية, فكف رجار عن شره(3). وتوفي الأمير علي بن يحيى بن تميم, صاحب إفريقية, في العشر الأخير من ربيع الآخر, وكانت حروبه وأعماله دالة على علو همته, ولما توفي ولي الملك بعده ابنه الحسن, وعهد إليه بأمر دولته صندل الخصي؛ لأنه كان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة لا يستطيع أن يستقل بتدبير الملك, فقام صندل بالأمر خير قيام, فلم تطل أيامه حتى توفي, فوقع الخلاف بين أصحابه وقواده, كل منهم يقول: أنا المقدم على الجميع, وبيدي الحل والعقد, لم يزالوا كذلك إلى أن فوض

(1) الكامل (ج524/6).
(2) المصدر السابق (ج524/6).
(3) الكامل (ج524/6).

أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له: أبو عزيز موفق فصلحت الأمور[1].

رابعًا: الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم:

ولد بسوسة سنة 502هـ وتولى بعد وفاة أبيه وجرت في أيامه وقائع وأمور يطول شرحها، وضعفت دولته وأصبحت هدفًا للنصارى الحاقدين, ورأوا أن الفرصة حانت لاحتلال مدن جنوب البحر المتوسط وإذلال المسلمين, واستطاع رجار الصقلي احتلال طرابلس وبعدها المهدية.

وخرج الحسن بن علي من المهدية وهو يقول: «سلامة المسلمين أحب إليَّ من الملك والقصر».

وأراد الذهاب إلى العبيديين في مصر ثم تنحى عن هذه الفكرة, وراسل ابن عمه زعيم الدولة الحمادية في المغرب الأوسط إلا أن ابن عمه حبسه في إقامة جبرية خاصة، وبعد أن فتح الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي، استطاع الحسن ابن علي أن يتصل بخليفة الموحدين ودخل تحت سلطانه وعمل على تحرير أراضي المسلمين والمدن الساحلية من كل وجود للنصارى راضيًا بخلافة الموحدين, وتضاربت الأقوال في سنة وفاته إلا أنه بالتأكيد كانت بعد سنة 555هـ أثناء ذهابه لعاصمة الموحدين حيث عاجلته المنية وهو يشد الرحال إليها.

وبسقوط المهدية في قبضة النصارى الحاقدين بقيادة رجار الصقلي سنة 543هـ انتهت دولة بني زيري بعد أن دام ملكها على أرض إفريقية والمغرب الأوسط نحو مائة وثمانين عامًا (180 سنة) من زمن مؤسسها بلكين 362هـ إلى الحسن بن علي عام 543هـ. والدخول في أسباب سقوط الدولة الزيرية خصوصًا والدولة العبيدية عمومًا نلاحظ ما حدث لطرابلس الغرب من هجوم شرس غادر من قبل النصارى وما مر من أحداث في تلك الفترة.

أ- والي طرابلس في زمن الأمير الحسن بن علي الصنهاجي:

هو محمد بن خزرون بن خليفة ولي طرابلس.. بعد شدّ ملكها وقرب منه شيوخ بني مطروح لما لهم من الزعامة والرئاسة والمكانة والنفوذ في أوساط الجند وتدبير الأمور وأصبح لا يصدر إلا عن رأيهم وخلعوا يد الطاعة من الحسن بن علي وامتنعوا عن دفع الأموال إليه وأعلنوا طاعتهم للعبيديين في مصر.

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (ج4/82،83).

ب- رجار يهاجم طرابلس:

وفي سنة 537هـ هاجم رجار طرابلس وحاصرها بأسطوله ونقبوا أسوار المدينة, فدافع أهلها عنها دفاعًا مستميتًا, واستنجدوا بسكان الضواحي من العرب وغيرهم فأنجدوهم, ولم يتمكن رجار من دخول المدينة فرجع إلى صقلية خائبًا, وغنم الطرابلسيون منه بعض الأسلحة, وبقي ابن خزرون مستقلاً بطرابلس يدبر ويرتب وينظم شؤونها ويدين بالطاعة للعبيديين في مصر[1].

ج- المجاعة في طرابلس:

في سنة 540هـ تعرضت طرابلس لمجاعة كبيرة فاضطر بعض السكان إلى ترك البلاد والجلاء عنها, وكان محمد بن خزرون عنيفًا شديدًا على سكان البلاد قاسيًا في حكمه, فضيق على الناس في معيشتهم فضاقوا به ذرعًا وهو لا يزداد إلا تعسفًا.

وكان بنو مطروح في مقدمة وجهاء طرابلس ومن زعمائها وكانوا معيدين لمحمد بن خزرون, ونقموا عليه ذلك وحاولوا أن يخففوا من وطأته فجمعوا الناس وخرجوا عليه وأبعدوه هو وشيعته من المدينة. وكان رجار حاكم صقلية يتابع هذا النزاع وينتهز الفرص ليستغل الظروف, واستفاد من وقوع كارثة المجاعة وثورة السكان على ابن خزرون وطرده من المدينة, وأراد الانتقام لهزيمته الأولى فأرسل جيوشه وأساطيله وهاجم بهم طرابلس فدخلها بدون مقاومة ودون متاعب عام 541هـ.

وبانتهاء محمد بن خزرون انتهى حكم بني خزرون في طرابلس.

وأصبح قائد أسطول رجار جرجي بن ميخائيل الأنطاكي الذي تعلم في الشام, وفي قصر تميم بن المعز, حاكمًا على طرابلس وطلب منهم الأمان فأمنهم, وشرط لهم ألا يلزمهم بما يخالف دينهم.

وهذه هي المرة الأولى التي يستولي فيها النصارى الحاقدون على طرابلس, أما المحاولة التي كانت سنة 537هـ فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها[2].

وحاول رجار أن يسيطر على أهل طرابلس بأهلها فأسند لهم رجار ولاية الطرابلسيين يوسف بن زيري قاضيًا وكنيته أبو الحجاج, وحكم رافع بن مطروح اثنتي عشرة سنة وهو يدين لرجار بالطاعة.

ويتصور أن رضاه بالعمل تحت راية النصارى مضطرًا إليها

(1) تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (305).
(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (307).

اضطرارًا خارجًا عن إرادته, ولم يتوان في تقليل المضار ودفع عن المسلمين ما أمكنه من ضرر مع انقياده لرجار في صقلية.

ولما هلك رجار سنة 548هـ بعد أن ملك ما بين المهدية وطرابلس ما عدا قابس خلفه في الحكم ابنه غاليالم وسمى نفسه رجار الثاني فقويت شوكته في الشمال الإفريقي, ودخلت قابس في طاعته, وكان شديد الوطأة على المسلمين, فملوا حكمه, وسئمت نفوسهم تحت حكمه, وشجعوا مع ظهور دعوة الموحدين في إفريقية وقربهم من المهدية.

وبدأت الثورة المسلحة ضد غاليالم في صفاقس, وانتشرت في البلاد الساحلية, وعندما وصلت إلى طرابلس خاف غاليالم أن يتصل الطرابلسيون بالثورة فأحدث فتنة بين الأهالي لتلهيهم عن التفكير في الثورة, وعن الاتصال بالموحدين وطلب من أهالي طرابلس أن يشتموا الموحدين, فامتنع أهل طرابلس ولجأوا إلى القاضي أبي الحجاج, وكلفوه بأن يفهم غاليالم بأن طلبه هذا يخالف الدين وتمكن القاضي من إقناعه بإعفائهم من طعن الموحدين وشتمهم.

ودفعت معاملة غاليالم الطرابلسيين للثورة ضده بسبب ظلمه وتعسفه, فقاد رافع ابن مطروح الثورة وتحررت طرابلس عام 553هـ من حكم النصارى, وأصبح رافع بن مطروح حاكمًا على طرابلس لما له من جاه ومكانة عند أهلها, وامتد نفوذ دعوة الموحدين في الشمال الإفريقي, ودخلت طرابلس في طاعة عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين, وكان ذلك في سنة 555هـ[1].

* * *

(1) تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (307).

المبحث السادس
أسباب سقوط الدولة الزيرية في الشمال الإفريقي

1- عجز الدولة الزيرية عن توحيد الشمال الإفريقي كله, وظهور بعض القبائل المناهضة للصنهاجيين مثل قبائل زناتة التي تحالفت مع الدولة الأموية في الأندلس.

2- الانقسام الداخلي الذي حدث للعائلة الزيرية وترتب عليه ظهور الدولة الحمادية في المغرب الأوسط.

3- الصراع المسلح الذي استمر عشرات السنين بين الصنهاجيين والزناتيين والكتاميين مما أضعف الدولة أمام التحديات الخارجية.

4- المكر الباطني بالدولة الزيرية وتمثل ذلك في محاولة اغتيال سلاطينهم وإرسال قبائل بني هلال وبني سليم للانتقام من المعز بن باديس سلطان الدولة الزيرية في زمانه.

5- انفصال بعض المدن عن عاصمة الدولة الزيرية بسبب الزحف العربي المدعوم بالحقد الباطني ومحاولة سلاطين الدولة الزيرية إرجاع هذه المدن المنفصلة مما كلف الدولة الزيرية جهدًا ووقتًا ودماءً وأموالاً من أجل إرجاع تونس وتخليصها من بني خراسان وتخليص صفاقس منها من البراغواطي وقابس وتخليصها من بن جامع.

6- الغزو الصليبي القادم من وراء البحر الأبيض المتوسط, وصراع الدولة الزيرية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا, ذلك الغزو النصراني الحاقد بعد أن استولت قوات النورمان على جزيرة صقلية 484هـ فاحتلوا جزيرة جربة عام 529هـ, وبسطوا سلطانهم على طرابلس عام 537هـ, ثم عادوا واحتلوها عام 541هـ, وزحفوا على فاس 542هـ, ولكن الصراعات الداخلية التي حدثت بين العرب وزناتة وبني حماد وقوة الدولة الزيرية مما جعل الحملات الصليبية تستسهل مهمتها في القضاء على الدولة الصنهاجية الزيرية وتم لها ذلك بسقوط المهدية عام 543هـ.

7- هجرة العلماء والفقهاء من القيروان والمهدية إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى.

8- تعرضت التجارة والصناعة والزراعة لهزات عنيفة نتيجة الاضطرابات الداخلية والصراعات, وجعلت الناس تهاجر إلى الأندلس وصقلية والمشرق الإسلامي.

* * *

حكام بني زيري في القيروان والمهدية:

1- بلكين بن زيري بـ ن منـ اد بـ ن منق وش الصـ نهاجي 362- 374هـ ، 973- 984م.

2- المنصور بن بلكين بن زيري 374- 386هـ، 984- 996م.

3- باديس بن المنصور بن بلكين 386- 406هـ، 996- 1015م.

4- المعز بن باديس بن منصور 406- 453هـ ، 1015- 1062م.

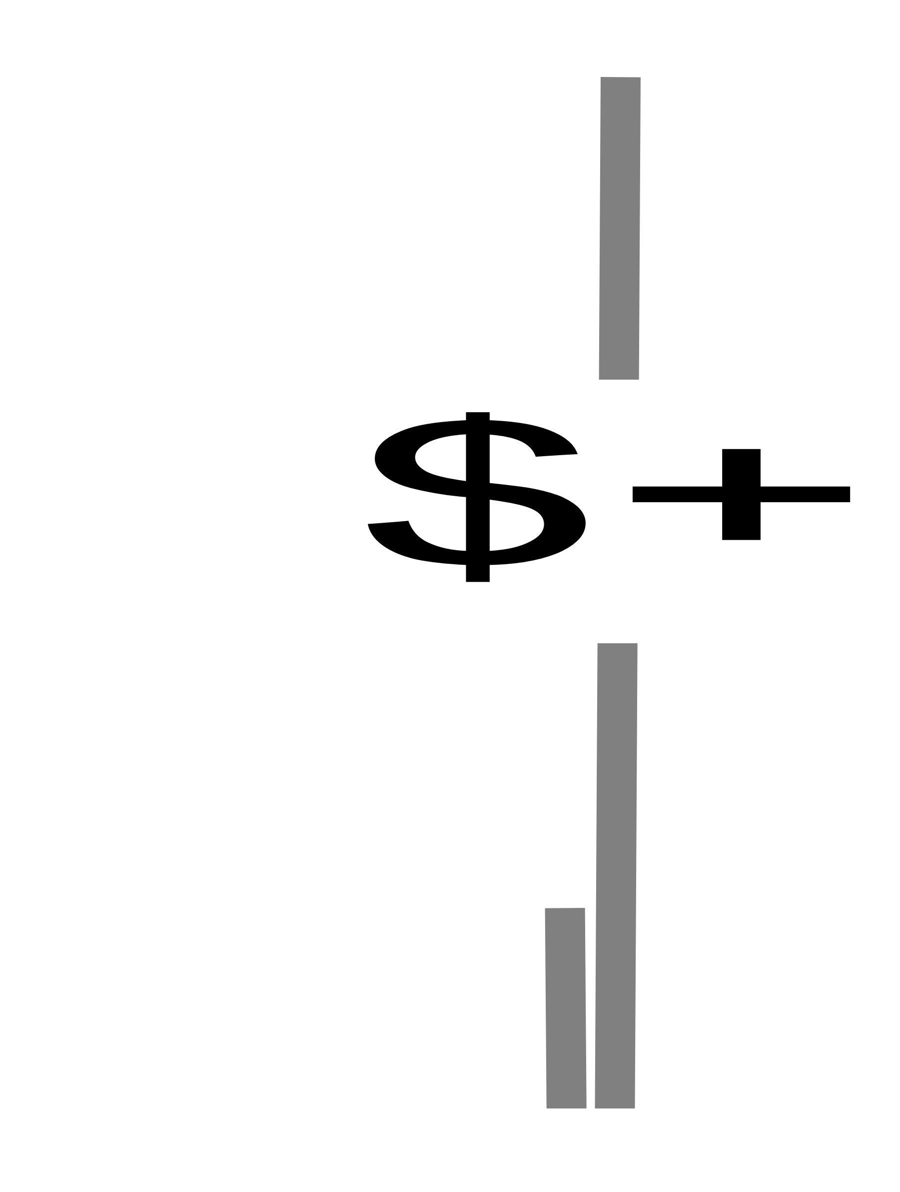
5- تميم بن المعز بن باديس 453- 501هـ ، 1062- 1107م.

6- يحيى بن تميم بن المعز بن باديس 501- 509هـ ، 1107- 1116م.

7- علي بن يحيى بن تميم 509- 515هـ , 1116- 1121م.

8- الحسن بن علي بن يحيى 515- 543هـ ، 1121- 1148م.

* * *



المبحث الأول
من أسباب سقوط الدولة العبيدية
واندحار المد الباطني والتغلغل النصراني الصليبي

1- مقاومة المغاربة الباسلة للمد العبيدي الباطني بقيادة العلماء والفقهاء والمحدثين, مما جعل الدولة العبيدية يقررون نقل ملكهم وزعامتهم إلى مصر.

2- ظهور القائد الإسلامي الغربي البربري المعز بن باديس الذي أعلن انفصاله السياسي والعسكري والعقدي عن الدولة العبيدية في مصر.

3- صراع الدولة العبيدية مع القرامطة في الشام من أجل الأطماع الدنيوية الأرضية.

4- استعانة العبيديين بالنصارى الأوروبيين للوقوف ضد تقدم السلاجقة في بلاد الشام, ثم غدر النصارى بالعبيديين بعد مجيئهم وخذلانهم للدولة العبيدية في مصر.

5- رفض المصريين للمذهب العبيدي الباطني والعمل الجاد من قبل العلماء والفقهاء وأبناء الشعب المصري في نخر الدولة العبيدية الباطنية.

6- رجوع الدولة العباسية إلى التمسك بالكتاب والسنة والدعوة إليه وكانت من أوائل بدايات الرجوع ما قام به الخليفة القادر بالله عام 408هـ حيث استتاب فقهاء المعتزلة فأظهروا الرجوع وتبرؤوا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام(1).

امتثل السلطان محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك واستن بسنته في عقوبة المعتزلة والرافضة والإسماعيلية وجميع طوائف أهل البدع ونفاهم عن ديارهم كما أحرق كتب الفلسفة وغيرها(2). وجاهد محمود الغزنوي المد الباطني الرافضي الإسماعيلي في بلاد الهند وبلاد أفغانستان.

قال فيه ابن كثير في ترجمته: «الملك الكبير المجاهد الغازي أبو القاسم صاحب بلاد غزنة وما والاها, افتتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند, لم يتفق لغيره من الملوك لا قبله ولا بعده, وغنم مغانم كثيرة, وكان مع هذا في غاية الديانة وكراهة المعاصي وأهلها, يحب العلماء والمحدثين, ويحب أهل الخير والدين»(3).

وعندما حاول العبيديون في مصر إغراءه بالهدايا كي يقيم الدعاية لهم في

(1) الكامل (ج305/9).
(2) البداية والنهاية (ج32-28/12).
(3) البداية والنهاية (ج12/ 28-32).

بلاده, أحرق كتبهم وهداياهم(1) وقتل الداعي منهم، ورتب لهم الدعوة وأهدى بغلته إلى القاضي أبي منصور محمد الأزدي، وقال: كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين(2). استطاع هذا الملك السني الميمون أن يكسر شوكة الإسماعيلية والمبتدعة في بلاده, فجزاه الله خيرًا. وتوفي هذا الملك المجاهد عام 421هـ ودولته في غزنة قوية وبلغت حدودًا واسعة، وله في سيرته الميمونة, واستمر الغزنويون يحكمون بالمذهب أهل السنة إلى القرن الثالث عشر الهجري حين تحكم الإنجليز ونقلوا السلطة إلى الهنادكة بعد رحيلهم(3).

7- ظهر السلاجقة السنيون في بلاد خراسان وامتد نفوذهم إلى عاصمة الخلافة, واستطاعوا أن يقضوا على البويهيين عام 448هـ, وبذلك سقطت دولة البويهيين الشيعية, وقضى السلاجقة على فتنة البساسيري الشيعي, وفي عام 448هـ أزيل ما كان على أبواب المساجد من سب الصحابة, وأمر رئيس الرؤساء بقتل شيخ الروافض أبي عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض(4).

وفي عهد ألب أرسلان زعيم السلاجقة عاد للأمة عزها المفقود, وتوج لهم الانتصارات الكبيرة على النصارى, وعمل ألب أرسلان على تخليص حلب وديار الشام من الهيمنة العبيدية وإرجاعها للخلافة العباسية, وفي عام 462هـ رجعت مكة إلى السيادة العباسية, وانخلعت من التبعية العبيدية, وأعطى السلطان ألب أرسلان لمحمد بن أبي هاشم حاكم مكة ثلاثين ألف دينار(5).

وفي زمن وزارة نظام الملك «الحسن بن علي» قامت الدولة السلجوقية بتولية الأمور القيادية في الدولة للقواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة, ونشروا علوم أهل السنة, قال المؤرخ أبو شامة: «فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك, فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها»(6).

وهذا الوزير الصالح «نظام الملك» «الحسن بن علي» الذي شجع بناء المدارس للطلبة, ففي عام 459هـ تم عمارة المدرسة النظامية في بغداد, وأسس المدارس في نيسابور وغيرها من البلدان, وقد سرى هذا الاتجاه في بناء المدارس السنية إلى مصر, وتحت نفوذ العبيديين في البلاد المصرية أنشأ أبو الحسن علي بن السلار وزير الظافر سنة 544هـ مدرسة وجعل رياستها للحافظ السلفي, وكانت المدرسة الوحيدة للشافعية في الإسكندرية, كما أنشئت المدرسة

(1) البداية والنهاية (ج43،32/12), وأيعيد التاريخ نفسه؟ ص (66-68), والروضتين ص (31).
(2), (4) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (66).
(4) البداية والنهاية (ج43/12).
(5) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص(68).
(6) الروضتين في أخبار الدولتين (31).

العوفية 532هـ وعلى رأسها الفقيه المالكي ابن الطاهر بن عوف، ومن أغراض هاتين المدرستين الوقوف في وجه المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السني»[1].

قال المؤرخ أبو شامة عن نظام الملك: «كان عالمًا فقيهًا دينًا خيرًا متواضعًا عادلًا يحب أهل الدين، وأدرّ صدقاته وأوقافه فلا حد له، ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل منها بلد، حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وكان يحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة»[2] قتل –رحمه الله– بيدي الغدر والخيانة الباطنية قرب نهاوند في اليوم العاشر من رمضان عام 485هـ[3].

8- علماء المدرسة الشافعية وعلى رأسهم الإمام الجويني أبو المعالي إمام الحرمين الذي اهتم بمشاكل عصره وكتب كتابه المعروف غياث الأمم في التياث الظلم في السياسة الشرعية التي تبحث في مشكلات المسلمين الواقعية، ومن تلاميذ الإمام الجويني النابغين: أبو حامد الغزالي والكيا الهراسي، وقد ألف الغزالي كتابه إحياء علوم الدين وبين فيه أن هذا من أسباب إصلاح أحوال الناس، ولكن يؤخذ على الكتاب حشوه بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والقصص غير المعقولة من شطحات الصوفية، والكلام الفاسد من الفلاسفة، ومع ذلك ففي كتابه نظرات إصلاحية لإصلاح النوايا والقلوب، وكانت بحوث الغزالي في النفس البشرية عميقة أثرت تأثيرًا كبيرًا في واقع المسلمين[4].

وكان قبل الإمام الجويني الإمام الماوردي الذي حاول أن يمهد الطريق لإمام الحرمين فكتب الأحكام السلطانية (مشكلة الحكم) وكتب أدب الدنيا والدين (لمعالجة مشكلة دقيقة في حياة المسلمين وهو كيف نجمع بين الدين والدنيا في توازن شرعي؟).

وعلماء المدرسة الشافعية السنية من أمثال أبي إسحاق الشيرازي وتلاميذهم ساهموا في اندحار الرفض والمذاهب الباطنية[5].

9- ظهور العلماء العاملين المخلصين بين المنتسبين للمدرسة الحنبلية في مدارس بغداد الذين تربى علماء أعلام على أيديهم كالشيخ أبي الوفاء بن عقيل، والشيخ أبي الفرج بن الجوزي الإمام الحافظ الواعظ، وكان لهم تأثير في رجوع الناس إلى الدين على أصول سنية، وكان لمدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي دور بارز في تعليم الأمة وتربيتها وخصوصًا بعد أن تولى

(1) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (69).
(2) الروضتين في أخبار الدولتين (ج5/1).
(3) البداية والنهاية (ج150/12).
(4) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (70-73).
(5) المصدر السابق.

أمرها العالم الرباني عبد القادر الجيلاني, وكبار علماء بلاد الشام يرحلون إلى بغداد لدراسة الفقه الحنبلي, وللاتصال بهذه المدرسة التربوية الفقهية العقدية, وممن تربوا في هذه المدرسة الحافظ عبد الغني المقدسي الذي دخل بغداد سنة 560هـ مع الموفق ابن قدامة وأكرمهم الشيخ عبد القادر الجيلاني غاية الإكرام(1).

وهؤلاء المقادسة أبو عمر وأخوه الموفق, وخالهم عبد الغني والشيخ العماد كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الإفرنج, وقد حضروا معه فتح القدس(2), وكان لهؤلاء العلماء تأثير عظيم في نفوس المسلمين ودفعهم نحو الجهاد والاستشهاد في سبيل العقيدة ومحاربة العقائد الباطنية الإسماعيلية وكشف مخططات العبيديين وأساليبهم الماكرة.

وكان الواعظ الفقيه الحنبلي الدمشقي علي بن إبراهيم بن نجا من تلاميذ المدرسة الحنبلية في بغداد, وانضم إلى صلاح الدين الأيوبي, وحظي بحظوة عنده, وهو الذي ساعد صلاح الدين في كشف مؤامرة عبيدية انتقامية للقضاء على أهل السنة في مصر وإرجاع الدولة العبيدية(3).

وفرح الناس ببلاد الشام بعودة السنة, قال أبو المظفر الجوزي: «كان الشيخ العماد يحضر مجلسي دائمًا ويقول: صلاح الدين يوسف فتح الساحل, وأظهر الإسلام وأنت يوسف أحييت السنة بالشام»(4).

وكان العماد المقدسي يجلس بعد الفجر إلى بعد العشاء يعلم الناس القرآن والأحكام ويشرح لهم الإسلام, وقد ساهمت مدرسة الحنابلة السنية في محاربة الجهل, ودحر الرفض, وإحياء السنة, وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس المسلمين.

10- الحملات المتتابعة التي قام بها حكام السلاجقة لاقتلاع جذور الباطنية, وإليك ما قام به هؤلاء الأمراء من خدمة جليلة للعالم الإسلامي.

ففي سنة 486هـ قام سلطان بلاد ما وراء النهر بغراخان بحملة مباركة للقضاء على طائفة الإسماعيلية, وقضى على من دخل بلاده من دعاة العبيديين الذين أرسلتهم الخلافة العبيدية في مصر, فقتلهم كلهم وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها, وسلمت تلك البلاد منهم بقتل الباطنية(5), وقام أهل أصبهان بقتل من عندهم يقودهم في ذلك الفقيه الشافعي السني مسعود بن محمد الخجندي.

(1) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (70- 73).
(2), (3) المصدر السابق.
(4) سير أعلام النبلاء (ج50/22).
(5) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص(74،75).

وفي سنة 500 قتل السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مقتلة عظيمة وأجلاهم عن قلعة أصبهان بعد حصارها وبعد مخادعة ومخاتلة منهم, وقتل صاحبها ابن غطاش(1).

وفي سنة 523هـ حاول الإسماعيلية تسليم دمشق للصليبيين مقابل أن يسلمهم الصليبيون مدينة صور واكتشف أمير دمشق هذه المؤامرة الشنيعة «بوري بن طغتكين», فقتل متولي الإسماعيلية المزوقاني ونادى في البلد بقتل الباطنية؛ فقتل منهم ستة آلاف وكان ذلك في شهر رمضان(2).

وفي حوادث سنة 511 قال ابن الأثير: علم السلطان محمد «السلجوقي» أن مصالح العباد والبلاد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم, وكان في أيامه المقدم عليهم والقيم بأمرهم الحسن بن الصباح الرازي صاحب قلعة «ألموت», وكانت أيامه قد طالت فقد قلعة القلعة ما يقارب ست وعشرين سنة, وكان المجاورون له في أقبح صورة كثيرة غزاته لهم وقتله رجالهم, فأسند السلطان له العساكر بقيادة أنوشتكين, فملك عدة قلاع منهم, ثم سار إلى قلعة «ألموت» وحاصرهم أشهرًا يراوغون لأخذ الأمان وتركوا القلعة, واستمر هذا القائد في حصارهم, ثم جاء الخبر بوفاة السلطان محمد فتفرق عنه العساكر ولم تفلح تلك الحملة(3) بعد السلطان سنجر (521هـ) أوقع بالباطنية في «قلعة ألموت» وقتل منهم خلقًا كثيرًا.

إن محو آثار هؤلاء المجرمين أثخنت الدولة العبيدية وساهم في إضعاف المد الباطني في العالم الإسلامي وانحساره.

إن اعمال السلاجقة في تتبع آثار الباطنية لا يستطيع أحد أن يجزيهم عن أعمالهم الجليلة التي خدمت الأمة الإسلامية إلا الكريم المنان الرزاق الفتاح الغفور الرحيم.

11- ظهور أمراء ربانيين أصحاب ديانة وتقوى ودراية بالحروب وحب الجهاد, وأخص بالذكر الأمير الرباني القائد المجاهد مودود الذي بدأ بجهاد الصليبيين وأعاد الثقة إلى نفوس المسلمين وبث روح الجزيرة والموصل في الزحف على النصارى حتى يتخلص منهم المسلمون الحصون والمدن بقوة الإيمان ومضى الفارس «الأمير عماد الدين زنكي» استطاع تخليص حلب من يد النصارى في عام 522هـ, وفي سنة 532هـ جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة فتحالف عماد الدين زنكي مع سلطان ابن منقذ الكناني حتى ردوا النصارى على أعقابهم خاسرين.

وفي سنة 534هـ جهز زنكي حملاته على الإفرنج, وصبر المسلمون صبرًا لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير «القادسية» ونصر الله المسلمين

---

(1) الكامل (ج430/10).

(2) محمد كرد علي, خطط الشام (ج3/2) نقلاً عن كتاب: أيعيد التاريخ نفسه؟

(3) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (75- 81).

وهرب ملوك الإفرنج.

وكان من أعظم أعماله فتح «الرها» في سنة 539هـ وعادت هذه المدينة إلى حكم الإسلام وهي من أشرف المدن عند النصارى, وسقطت بعدها الحصون القريبة وأخلى ديار الجزيرة من حكم الفرنج وشرهم.

ولم يستطع زنكي إتمام هذه المرحلة فقد قتل وهو يحاصر قلعة «جعبر» التي تقع على نهر الفرات في إقليم الجزيرة, وكان -رحمه الله- من خيار الملوك وأحسنهم سيرة, وكان شجاعًا مقدامًا حازمًا, مدحه الشعراء في أعماله وتوفي عام 541هـ مقتولاً.

ومما مدحه من الشعراء في أعماله ما قام به الأمير زنكي في دفع ملك الروم عن دمشق ... ب ... ن خضر ... ن قس ... يم الحم ... وري في قصيدة أولها:

ا الملك العظيم ... يم ... عاب وتسد ... تقيم

ومنها:

ب الروم لما ... ك ال ... رحيم

ق الفلوات خ ... يلاً ... ل البهيم

زمان على رضاه ... ب العظيم

ه بك في خمس ... يقي ... دوم

سر في المفاضة منك جيشًا ... ير ولا يقيم

عجاج شهاب ذور ... يطان رجيم

ولي ... حم ام له حم ... يم[1]

* * *

(1) الكامل (ج22،21/7).

المبحث الثاني
نـــور الدين محمـــود

تولى أمور الدولة الزنكية بعد مقتل والده عماد الدين زنكي ابنه نور الدين، الذي نشأ مع والده في العراق ثم الموصل وبلاد الشام. وقام مقام والده في الجهاد والعدل، وأظهر السنة في حلب وغير البدع وقمع الرافضة، وبنى المدارس وأوقف الأوقاف، وأظهر العدل، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية متبعًا للآثار النبوية، مواظبًا على الصلوات في الجماعات، عاكفًا على تلاوة القرآن، عفيفًا البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق، متحريًا في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش قط[1]، قال عنه ابن الأثير: «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه»[2].

ومن زهده وتقواه أنه كان لا يأكل ولا يلبس إلا من ملك كان له اشتراه من سهمه من الغنيمة، والأموال المرصدة لمصالح المسلمين، وقد شكت إليه زوجته الضائقة وزيادة النفقة فاحمر وجهه وقال: «من أين أعطيها ما يكفيها، والله لا أخوض نار جهنم في هواها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكًا، قد وهبتها إياها فلتأخذها»[3].

وقال ابن الأثير: «كان يصلي كثيرًا من الليل ويدعو ويستغفر ولا يزال كذلك إلى أن يركب».

شجاعة والخشوع لربه سن المحراب في المحراب [4]

وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء، وهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، لم يترك في بلاده ضريبة ولا مكسًا ولا غشًا، بل منعها رحمه الله جميعًا في بلاد الشام والجزيرة ومصر[5].

ومن عدله أنه بنى دارًا للعدل، بسبب بنائها أن أمراءه وقواد جيوشه تعدوا على من يجاورهم، فكثرت الشكاوي إلى القاضي كمال الدين، فأنصف بعضهم ولم يتجرأ على القائد أسد الدين شيركوه، فلما سمع نور الدين بذلك بنى

(1) الروضتين في أخبار الدولتين (ج5/1).
(2)، (3)، (4) الكامل (ج242/7).
(5) انظر: الروضتين (ج6/1).

هذه الدار وأحس أسد الدين بهذا فقال لنواب الملك نور الدين: حضرت إلى دار العدل بسبب أخاصمكم لأطلب لينه بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال معه, فقالوا: إنه إذا فإن الناس يشتطون في الطلب فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين ظالم وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع فلما علم بما حصل من أسد الدين شيركوه سجد لله شكرًا.

وكان فعاله في بلاد الإسلام من المصالح كثيرة في أسوار مدن الشام جميعها وأحكم بناءها وبنى المدارس بحلب وحماة ودمشق, وكان أهل الدين عنده في أعلى مكان لأن أمراءه يحسدون علي ذلك فقد ذكر أحد الأمراء الشيخ قطب الدين النيسابوري أمام نور الدين فقال له السلطان: يا هذا, الذي تتكلم عليه له حسنة تغفر كل زلة ولو كانت في العلم والدين, وأنتم وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت لكني أصبر على سيئاتكم مع عدم حسناتكم, أفلا أحمل سيئة هذا –إن صحت- مع وجود حسنات على أنني والله لا أصدقك فيما تقول, وإن عدت وذكرته بسوء لأؤدبنك»[1].

ومن عفته وتقواه أن هدايا الملوك لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير بل يخرجه إلى مجلس القاضي ليصرف ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة[2]. وكان نور الدين -رحمه الله- يتقبل النقد بصدر رحب وهمن ذلك ما بلغه عن الشاعر أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي الذي كان من صالحي زمانه وكان في أخذ الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه وحذره وخوفه مما هو فيه, فقال لنور الدين هذه القصيدة:

أيها المغرور	ماء تمور
الدين رحمت مسلمًا	أن تبقى وما ور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت في	م ط ائش مخمور
عطلت المدام تعففًا	ات الحرام تدور
نقلت إلى البلى	ك ردًا ر ونكير
إذا وقفت بموقف	لا ردًا والحيلا اب يرٌ؟
ت فيك الخصوم وأنت في	مسلم ل مجرور

(1) المصدر السابق ص (ج9،8/1).
(2) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (83).

ك الجذ ود وآذ ت ف ي موسد مقبور

وودا وليد ت ولاية يومًا أمير

د العز رة فيق حُرة وت وآذ ت حقير

رت عريانًا حزينًا باكيًا قلقَي الأذام مجير

أر تحيا وقلبا ك دارس راب وجسد ملك المعمور

أن يحظ ى سوى واك بقرب ه دًّ ذب مهجور

ة تنج و بها وم تبدو العور

فلم ورا الله هيئ ه ذه الأبيات بكى بك اءً شديدًا, وأمر بوضع المك وس والضرائب في سائر البلاد(1). وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم, ويقول لهم: إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم. وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه, وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار, وكان يقول في سجوده: اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب(2). وكان -رحمه الله- يحارب روح التزلف والنفاق للمسئولين, فمن ذلك أنه منع خطباء المساجد الذين يبالغون في الدعاء له ويصفونه بالعبارات الرنانة التي تعودوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين, فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسراني أن يوقف ذلك, وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط تطابق الواقع بأحواله وأفعاله, فكتب له الصيغة التالية:

«اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك الخاضع لهيبتك المعتصم بقوتك, المجاهد في سبيلك المرابط لأعداء دينك أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين».

فقرأ نور الدين الخطبة والدعاء وعلق عليها العبارة التالية: «مقصودي ألا يكذب على المنابر, وبخلاف كل ما يقال أفرح بما لا أعلمه, قلّة عقل عظيم, الذي كتبت هو جيد اكتب به نسخة حتى نسيره إلى جميع البلاد», ثم أضاف: ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق حقًا, اللهم اسعده, اللهم انصره, اللهم فقهه. من هذا الجنس»(3).

وعندما طلب نور الدين أن يسمح للأمراء أن يعملوا بنوع من السياسة؛ لأن المفسدين وقطاع الطرق قد كثروا ويحتاج إلى نوع من السياسة, مثل هذا

(1) انظر: البداية والنهاية (ج302/12).
(2) انظر: د. حسين مؤنس- نور الدين محمود, ص (401،400).
(3) المصدر السابق, ص (441،440).

لا يجئ إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيئ ليشهد له؟.

فلما قرأ نور الدين كتابه بكى وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى ما شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه وتعالى يهدينا إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم، ولما كان الذي طلب من السلطان نور الدين الشيخ عمر الملاء بطلب من الأمراء، فلما وصل الرد من السلطان إلى الشيخ عمر جمع أهل الموصل وقرأ عليهم الكتاب وقال: «انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد»[1].

هذا الذي ذكرت بعض سيرة السلطان نور الدين محمود ليعلم القارئ أن الذي يكرمه الله بنصره وتأييده له لابد أن يكون ربانيًا موصولاً بالله تعالى.

وكانت سياسة دولة نور الدين محمود للأهداف رسمتها وسعت سعيًا حثيثًا لتحقيقها، ومن أهم تلك الأهداف الواضحة المعالم:

أولاً: إعداد الشباب إعدادًا جيدًا وتطهير الحياة الدينية والثقافية من التيارات الفكرية المنحرفة كالباطنية والتيارة الفلسفة اليونانية وممارسات العبيدية للعبادات والشعائر، ولهذا فقد عمدت الدولة إلى بناء المدارس ودور القرآن ودور الحديث، وتشييد الخانقاوات والربط، ومشاهير العلماء والتربويين خاصة الذين تخرجوا من المدرستين التربويتين الغزالية والقادرية، وقد صبت الخطة التعليمية التربوية في زمن السلطان نور الدين محمود على صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق مع أهداف الإسلام على أسس عقدية واضحة المعالم، وكانت محاضن هذا الإعداد في المدارس والمساجد والجوامع، ففي دمشق وحدها أكثر من مائة مسجد، وركزت تلك الانطلاقة العلمية على بث روح الإسلام ذات المفاهيم السنية والطريقة النبوية، وهدفت إلى تجفيف وحسر التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت آثارًا عميقة في عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية، والتي من أجلها وصفهم ابن جبير بأنهم لا إسلام لهم، وأنهم أهل أهواء وبدع إلا من عصم الله، وحاربت الدولة الزنكية كل المظاهر العبيدية في البلدان التي ضمتها إليها كالأذان بـ«حي على خير العمل» والتظاهر بسب الصحابة، وأنكرت ذلك إنكارًا شديدًا، ووقف علماء أهل السنة مع الدولة كجند لها واعتبرت المخطط الخطير على طائفة الإسماعيلية الباطنية العبيدية وأهل التشيع عمومًا، فضاقت صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكتوا

(1) ابن القاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص (25،26).

وأحجموا للخوف من سطوة الدولة الزنكية السنية[1]. كان الفقيه الشافعي قطب الدين النيسابوري الخراساني صاحب الفضل في إحياء السنن في زمن السلطان نور الدين محمود، وكذلك ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر البغدادي كان من أعمدة الدولة الزنكية، وانضم إلى النورية من بلاطه شرف الدين عبد المؤمن بن شوردة.

وأوضح السلطان نور الدين سياسة الدولة التعليمية بقوله: «أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين».

وتبارى الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المؤسسات التعليمية والتدريس وتوفير الفرص لأفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها.

تلقت جماهير المسلمين العريضة من العمال والمزارعين والتجار مستهدفة من قبل الدولة الزنكية، فقامت بإرشادهم وتوجيههم فزرعت في نفوسهم العقيدة والأخلاق والقيم، وكان للتصوف المعتدل بقيادة الشيخ عبد القادر الجيلاني أثر واضح في نفوس الجماهير، وقد استفادت الدولة الزنكية من الحركة الصوفية الإصلاحية القادرية، فأقامت لهم الأربطة والزوايا واحترمت شيوخهم واستقدمتهم وهذبت الجماهير وزكت نفوسهم وفق خطة الدولة المرسومة واهتمت الدولة بالإعداد العسكري إلى جانب التعليم والإرشاد والتربية ودربت كل أتباعها تدريبًا عسكريًا وبثت روح الجهاد في صفوفهم، وكان التدريب يقوم على دعامتين:

1- الإعداد المعنوي والروحي.

2- التدريب العسكري وألف زعيم الدولة الزنكية السلطان نور الدين محمود كتابًا في الجهاد.

وتكاملت جهود العلماء والفقهاء والقادة والزعماء في داخل مؤسسات الدولة المتعددة، وسعت في تحقيق برامج الدولة النورية السنية.

وبسبب هذا التكامل والوفاق أصبحت الدولة النورية قطبًا لجميع العلماء والشيوخ، هاجروا إليها من كل بقاع العالم الإسلامي، وانضووا تحت لوائها الإسلامي المجيد، وتجاوزت أعدادهم الآلاف، واستفادت الدولة منهم وفق برامجها، وتذكر كتب التاريخ أسماء الآلاف من المدارس ودور القرآن والحديث والأربطة والزوايا التي تضافرت فيها الجهود المذكورة، وأصبحت الدولة الزنكية بقيادة السلطان نور الدين تشرف على كل الخطط والبرامج المرسومة

(1) انظر: الكواكب الدرية في السيرة النورية، قاضي شهبة، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، 1971م.

التي بدأت تعطي ثمارها بتغيير البنية القديمة لبلاد الشام, أجيل التغيير وسيطرت الأفكار على روح الإسلامية لدى هيئات المجتمع وأفراده, ووجهت نشاطاتهم في جميع ميادين الحياة القائمة, وأصبح التغيير تغيير أمة, وتحققت سنة الله الجارية فيهم[1]: +إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" [الرعد:11].

استطاعت الدولة الزنكية أن تصبغ الإدارة بالصبغة الإسلامية وأن تدمج القيادات السياسية والفكرية بالمفاهيم والأحكام الشرعية.

كان رجال نور الدين ومعاونوه وقادة جيشه على مستوى راقٍ من العلم ومن أمثلة ذلك الأخوين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري, فقد كان فقيهًا شافعيًا ولي مناصب مختلفة في السفارة والوزارة وناظر الأوقاف وناظر المالية والقضاء, واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين[2].

ومنهم عبد الله بن محمد بن أبي عصرون الذي شغل منصب قاضي دمشق وناظرًا للأوقاف[3], وكذلك كان صلاح الدين فقيهًا, درس الفقه الشافعي, وسمع الحديث من أبي طاهر السلفي وغيره, وروى الحديث عنه أناس مثل يونس بن محمد الفرقي والعماد الكاتب وغيرهم, ويقال: إنه كان يحفظ القرآن و«التنبيه» في الفقه و«الحماسة» في الشعر[4].

ومثله وزيره الشهير وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي والذي قال صلاح الدين عنه: لا أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل, وكان القاضي الفاضل يجمع إلى حنكته السياسية ورعًا فقد كان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن, وكان متواضعًا يُكثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء, وقد أظهر هذا الرعيل من صنوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج, ومن أمثلة المهارات والمزايا ما يلي:

الأولى: تكامل القيادات الفكرية والقيادات الإدارية, فقد تلافت هذه القيادات خطورة الارتجال أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر, فقد تمت دراسة القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين, إذ كان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المختصون المنزلة الأولى فيه[5].

الثانية: اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات, فقد تميزت إدارة نور

---

(1) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين, ص (215-217).
(2) انظر: السبكي, طبقات الشافعية (ج6/188).
(3) انظر: السبكي, طبقات الشافعية (ج4/237).
(4) المصدر السابق (ج7/34).
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين, ص (225).

الدين بالشورى، وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية، يبحث في الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمرًا يخص الأوقاف، أو أي أمر له علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الأقوال، ولا يتعدى الرأي الذي يتفقون عليه، كما حدث في قلعة دمشق في 19 صفر عام 554هـ/11 يوليو سنة 1149م حين عقد نور الدين مجلسًا دعا إليه القضاة وكبار رجال الدولة ونفرًا من الأعيان وشهود العدالة للنظر في الأوقاف المرصودة للجامع الأموي، وكان شيوخ الجامع فيما مضى قد أدخلوا في أوقاف الجامع عقارات وأعيانًا أخرى داخلة في المنافع العامة، وأراد نور الدين أن يفصل هذه عن تلك، لكي يستخدم أموال المنافع في العسكرية في بناء الثغور وبناء سور دمشق لصيانة المسلمين وأموالهم؛ لأن هذا من «أهم المصالح» عند نور الدين، وأقر المجلس رأيه، وخالفوا ما أراده نور الدين ولم يأذنوا له بصرف فواضل الأوقاف في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة على المسلمين، وأجازوا له أن يأخذ قرضًا من هذه الفواضل يستخدمه في تلك المصلحة على أن يرده من بيت المال، مع شدة حاجة نور الدين إلى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع في ذلك الحين فإنه قبل رأي المجلس بنفس راضية، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة احترامًا للرأي وتكريمًا للدين ورجاله(1).

الثالثة: من المميزات التي ميزت تلك الإدارة هي غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران.

الرابعة: التفاني في أداء الواجب المقدس بتعاون وتآخ إسلامي رفيع ابتغاء مرضاة الله، وكان تعلقهم بالدين والشرع شيء يدل على تربية عالية، ومن حبهم لدينهم جعل الأمراء والحكام والسلاطين يتخيرون أسماء تدل على ذلك: عماد الدين، سيف الدين، معين الدين، نور الدين، صلاح الدين، أسد الدين، نجم الدين وزين الدين، وكان البويهيون الشيعة من حبهم للدنيا يسمون عضد الدولة، بهاء الدولة، صمام الدولة.

وكان أمراء وحكام الدولة النورية يحبون الموت في سبيل الله في ساحات الوغى، وإذا تعذر ذلك كتبوا في وصيتهم أن يدفنوا في المدينة النبوية، فعل ذلك جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين(2).

* * *

(1) د. حسين مؤنس, نور الدين محمود, ص (404،405).
(2) البداية والنهاية (ج272/12).

توحيد بلاد الشام والديار المصرية

كانت سياسة نور الدين محمود الرشيدة تسعى لتوحيد المسلمين تحت قيادة واحدة، فاستطاع أن يتحد مع دمشق وحلب والرها وغيرها من المدن الإسلامية التي حررها المسلمون بقوة السيف وحب الشهادة، وبدأ نور الدين في زحفه على حصون النصارى ومدنهم الواقعة بين مصر والشام، وكانت رغبة نور الدين في تخليص بلاد مصر من العبيديين الباطنيين الحاقدين حلفاء النصارى أمنية غالية ومطلبًا رفيعًا، فأرسل إلى مصر علماء وفقهاء ووعاظ لدعوة الناس، وتهيئة الرأي العام للفتح السني المجيد، وتخليص البلاد من نتن الروافض البغيضين، ومن أشهر الذين قاموا بهذا الدور محمد بن الموفق الخبوشاني الذي دخل مصر في عهدهم عام 560هـ وأخذ يبشر بالإسلام الصحيح، ويلعن العبيديين، ويصفهم بالزندقة واليهودية، وتطاير الركبان بأخباره في أنحاء العالم الإسلامي[1].

كانت الدولة النورية السنية تتحين الفرصة للدخول العسكري إلى مصر وجاءت الفرصة المناسبة عندما اختلف حكام مصر العبيديين فيما بينهم من أجل منصب الوزارة، واستنجد الوزير شاور بنور الدين محمود ضد ضرغام بن ثعلبة بالصليبيين واحتدم الصراع ومر بمراحل حتى استطاع أسد الدين شيركوه الذي أرسله نور الدين إلى مصر أن يبسط قبضته على الأمر لنور الدين في عام 564هـ عندما تولى أمر مصر صلاح الدين بعد عمه أسد الدين، وتدرج صلاح الدين في القضاء على الدولة العبيدية وإعادة مصر إلى السنة فيها ووحد الصفوف الإسلامية لفتح بيت المقدس.

وفاة نور الدين محمود

في عام 569هـ توفي إلى رحمة الله السلطان السني الغيور المخلص[2] المجاهد مميت البدعة ومحيي السنة وهازم النصارى وناصر الدين السلطان نور الدين محمود بعد جهاد عظيم وعمل جليل وتفانٍ نادر وخدمة للدين، وتقدم تلميذه المخلص الذي تربى على يديه واختاره لقيادة الجيوش السلطان صلاح الدين الأيوبي.

---

(1) انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص (262). (2) البداية والنهاية (ج12/397).

المبحث الثالث
صلاح الدين الأيوبي محرر القدس
ومزيل دولة العبيديين من مصر

ولد السلطان يوسف بن أيوب سنة 532هـ في قلعة تكريت في العراق, وكان والده أيوب بن شادي واليًا على القلعة, انتقل إلى الموصل ومعه أخوه أسد الدين شيركوه, ونشأ يوسف في كنف أبيه وعمه المجاهدين, وبدأ يترقى في كتائب المجاهدين, وذهب لمرافقة عمه أسد الدين عندما أرسله نور الدين محمود إلى مصر, ووصل إلى منصب وزارة التفويض بعد وفاة عمه في نهاية الدولة العبيدية, وأخذ في إرجاع مصر للخلافة السنية العباسية متدرجًا في تنفيذ هدفه النبيل الذي اشتاقت إليه نفوس المسلمين, فعزل قضاة مصر الروافض العبيديين, وأسند أمر القضاء إلى عبد الملك بن درباس الشافعي, وقطع الأذان بـ «حي على خير العمل», وأقام الخطبة للخليفة العباسي بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر 208 سنوات, وبشر نور الدين محمود الخليفة العباسي بذلك, وفرح الناس, وصل صلاح الدين على كل المحاولات الفاشلة لإرجاع مصر للخلافة العبيدية, وأحسن إلى الرعايا إحسانًا كثيرًا.

وقال العماد الأصبهاني في رجوع مصر للخلافة العباسية أبياتًا شعرية رائعة بعد وفاة العاضد العبيدي وزوال ملكه ودولته من مصر:

وفي ا   دعي مم   ا   مصـ   ر فم   ا

فرعونهـ   ا انقضـ   ى وغـ   دا   أُم   ور محتكم   ا

رة الغ   واة وق   د   رك ك   ل م   ا اضـ   ا طرما

مل الصـ   لاح ملتئمًـ   ا   د السـ   داد منتظمًـ   ا

دا مثلـ   عرّعار بـ   ي   الباطـ   اس حقّـ   ل اكتتم   ا

ي التوحيـ   د منتظـ   رًا   شـ   راك منتقم   ا

الضـ   لال فـ   ي ظـ   ل   ه وعمـ   ى

اهلون فـ   ي ظـ   م   ابر العلمـ   ا

ستضـ   يء معتليًـ   ا   د مـ   ا كـ   ان منهـ   دما

الدول   ة التـ   ي اضـ   طهدت   دين بعـ   د مـ   ا كـ   ان اهتـ   ا

. ف الإسـ لام مـ ن جلـ ل   سـ   لام وابتسـ ما
رت أوجـ ه الهـ دى فرحًا   نه ذ   دما
د حريم الأعداء منتهـ ك الهـ دى   اة منقسـ ما
ل القصـ ور أخربهـ ا   ن الكمـ ال سـ ما
د السـ كوت سـ اكنها   وأنفـ ات ذلاً   ه رغمًا (1)

وكان سقوط الدولة العبيدية سنة 567ﻫـ, وقال ابـ ن كثيـ ر فـ ي ذلـ ك: وقد كانـ ت مدة ملك الفاطميين مائتي سنة وكسرًا, فصاروا كأمس الذاهب: +كَأَن لَّـمْ يَغْنَـوْا فِيهَا" [هود:95] وكان أول مـ ن ملـ ك مـ نهم المهـ دي, وكان مـ ن سـ لمية حـ دادًا اسـ مه عبيد, وكان يهوديًا, فدخل بلاد المغـ رب وتسـ مى بعبيد الله, وادعـ ى أنـ ه شـ ريف علوي فاطمي, وقال عن نفسه إنه المهدي, كما ذكـ ر ذلـ ك غيـ ر واحـ د مـ ن العلمـ اء والأئمة بعد الأربعمائة, كما قد بسطنا ذلك في مواضعه, والمقصود أن هـ ذا الـ دعي الكـ ذاب راج لـ ه مـ ا افتـ راه فـ ي تلك البلاد, وآزره جماعة من الجهلة, وصارت له دولة وصولة, ثم تمكـ ن إلـ ى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه, وصار ملكًا مطاعًا, يظهر الـ رفض وينطـ وي على الكفر المحض, ثم كان من بعده ابنه القائم محمد, ثم ابنه المنصور إسماعيل, ثـ م ابنه المعز معد, وهو أول مـ ن دخـ ل ديـ ار مصـ ر منهم, وبنيت لـ ه القـ اهرة المعزيـ ة والقصران, ثم ابنه العزيز نزار, ثم ابنه الحاكم منصور, ثم ابنه الظاهر علـ ي, ثـ م ابنه المستنصر معد, ثم ابنه المستعلي أحمد, ثم ابنه الآمـ ر منصـ ور, ثـ م ابـ ن عمـ ه الحافظ عبد المجيد, ثم ابنه الظافر إسماعيل, ثم الفائز عيسى, ثم ابن عمه العاضد عبـ د الله وهـ و آخـ رهم, فجملتهم أربعـ ة عشـ ر ملكًا, ومدتهم مائتـ ان ونيـ ف وثمـ انون سنة, وكذلك عدد خلفاء بنـ ي أميـ ة أربعـ ة عشـ ر أيضًا, وكانـ ت مـ دتهم نيـ ف وثمـ انون سنة إلى أن قال...

وقد كـ ان الفـ اطميون أغنـ ى الخلفـ اء وأكثـ رهم مـ الاً, وكانوا مـ ن أغنـ ى الخلفـ اء وأجبرهم وأظلمهم, وأنجس الملوك سيرة, وأخبـ ثهم سـ ريرة, ظهـ رت فـ ي دولـ تهم البدع والمنكرات, وكثر أهل الفساد, وقل عندهم الصـ الحون مـ ن العلمـ اء والعبـ اد, وكثـ رت بـ أرض الشـ ام النصـ يرية والدرزيـ ة والحشيشية, وتغلب الفـ رنج علـ ى سـ واحل الشـ ام بكماله, حتى أخذوا القـ دس ونـ ابلس وعجلـ ون والغـ ور وبلاد غـ زة وعسـ قلان وكـ رك الشوبك وطبرية وبانياس وصـ ور وعكـ ا وصـ يدا وبيـ روت وصفد وطرابلس وأنطاكية وجميع ما والى ذلك, وقتلوا من المسـ لمين خلقًا وأممًا لا يحصيهم إلا الله, وسبوا ذراري المسلمين مـ ن النسـ اء والولـ دان ممـ ا لا يحـ د ولا

(1) البداية والنهاية (ج284/12).

يوصفوكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها وصـ ارت دار إسـ لام وأخـ ذوا أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصوكفـادوا أن يتغلبـ وا علـ ى دمشـ ق ولكـ ن الله سلمهين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله عز وجل هـ ذه الـ بلاد كلهـ ا إلـ ى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته»[1].

ق د مـ دح علمـ اء أهـ ل السـ نة وفقهـ اؤهم وحكـ امهم هـ ذا الفعـ ل الجميـ ل لصـ لاح الـ دين ألا وهـ و القضـ اء علـ ى دولـ ة العبيـ ديين الرافضـ ية الباطنيـ ة وأكثـ ر الشـ عراء القصائد في مدح صلاح الدين فقال بعضهم:

لـ ى دولـ ة الكفـ ر ن بيـ د بمصـ ر إن هـ ذا هـ و الفضـ ل

يعية باطنيـ ة مجـ وس الحين لهـ م أصـ ل

يُون كفيظهـ رً رون تشـ يعًا ابور عمهـ م الجهـ ل[2]

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة العبيدية هـ دفًا سـ تراتيجيًا للقضـ اء علـ ى الوجـ ود الباطنيـ ي بـ لاد الشـ ام؛ ولـ ذلك حـ رص علـ ى إعـ ادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح ووضع الخطط اللازمة وأعد الجيـ وش المطلوبـ ة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة وتمم الله له ما أراد على يد جنديـ ه المخلـ ص صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة.

وبعد أن استقرت أمور البلاد والعباد فـ ي مصـ ر وأزيلـ ت البدع وأحييـ ت السـ نة, وأميتت الفتنة وانتقل نور الدين إلـ ى ربـ ه الغفـ ور الـ رحيم الأمـ ر إلـ ى صـ لاح الـ دين بعـ د فـ تن اسـ تطاع أن يقضي عليهـ ا وحـ د بـ لاد الشـ ام ومصـ ر تحـ ت زعامتـ ه الفتيـ ة, وشـ رع فـ ي تنفيـ ذ الأهـ داف المرسـ ومة للدولـ ة النورية المقاومة. ن أهـ داف نـ ور الـ دين العظيمـ ة تحريـ ر ديـ ار المسـ لمين مـ ن النصـ ارى وتحريـ ر بيـ ت المقدس وإنشـ ه هيـ أ منبرًا عظيمًا لذلك ولكن المنية عاجلته قبـ ل تحقيـ ق هـ ذا الهـ دف الغـ الي الـ ذي ادخـ ره الله لصلاح الدين, فعزم صلاح الدين على مواصلة حركة الجهاد المقـ دس وفـ ك الحصـ ون والمدن من النصارى بالقوة بخطة واضحة محكمة وانتصـ ر علـ ى الفرنجـ ة فـ ي موقعـ ة مـ رج العيـ ون» سنة 575هـ وموقع «وبيت الأحزان» وأبـ اد عسـ ا كرهم ودمـ ر حصـ ن الأحزان في صفوفهم وما زال يناوش الفرنجة وينتزع منهم الحصـ ون حصـ نًا بعـ د حصـ ن حتـ ى تجمـ ع عنـ ده جـ يش كبيـ ر فـ ي سـ هل حطـ ين حيث كانـ ت الموقعـ ة الكبـ رى التـ ي كسرت عظام الصليبيين ومهدت لفتح القدس وأسـ ر وقتـ ل معظـ م مـ ن حضـ رها مـ ن الفرنجة: فمن شاهد القتلى قـ ال: مـ ا هنـ اك أسـ ير, ومـ ن عـ اين الأسـ رى قـ ال: مـ ا هنالـ ك قتيل, ومنـ ذ اسـ تولى الفـ رنج علـ ى سـ احل الشـ ام مـ ا شـ فى للمسـ لمين كيـ وم حطـ ين

(1) البداية والنهاية (ج287/12).
(2) المصدر السابق (ج288/12).

غليل»[1].

وكـ ان مـ ن الأسـ رى صـ احب الكـ رك «أرناط» ان يـ وذي الحجـ اج وسـ ب وكرسول الله × فنذر لئن قدر عليه ليقتلنه بيده فذلك صـ لاح الـ دين ل صـ ه حميـ ة لدينـ ه وحبًا لرسوله ×. فقتله صلاح الدين بنفسه ووفى نذره وخلص المسلمين من شره.

وكانـ ت موقعـ ة حطـ ين سـ نة 583هـ كـ ب البيت الصليبي وكسر جيش النصـ اري غـ م وهـ م ووحرز يوش الناصـ ر صـ لاح الـ دين تحـ رر مـ دن المسـ لمين, وتذل النصارى المحتلين, أسـ رى المسـ لمين مـ ن الأسـ ر الـ ذي طـ ال أمـ ده, وأرسل السلطان صلاح الدين أعيان الفرنج ومن لم يقتل من رؤوسهم, وبصليبهم الذي كانوا يحملونه في حـ روبهم ويزعمـ ون أنه المسيح عليـ ه السـ لام صـ لب عليـ ه والمسمى عندهم صليب الصلبوت بصحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشـ ق ليودعوا في قلعتها, فدخل الصليب منكسًا وكان يومًا مشهودًا.

وسار السلطان إلى قلاع النصارى ومدنهم فحرر قلعة طبرية, ثم خلص عكـ ا مـ ن النصـ ارى وفـ ك أسـ رى المسـ لمين منهـ ا وكـ انوا أربعة آلاف مسـ لم ثـ م صـ يدا وبيروت ثم عسقلان ونابلس ثم بيسان وأرض الغور, فملك ذلك كله.

وأمـ ر السـ لطان جيوشـ ه أن ترتـ اح فـ ي هـ ذه الأمـ اكن ويسـ تعدوا لفـ تح القـ دس, وطـ ار فـ ي الناس الخبر وسمع العلماء بذلك فقصـ دوا السـ لطان علـ ى ذلـ ك فقصـ ده العلمـ اء والصالحون من أماكن عديدة تطوعًا, وجاؤوا إليه كجنود في خدمته الميمونة[2].

وبدأت بشائر التحرير بزحف جيـ وش صـ لاح الـ دين نحـ و بيـ ت المقـ دس الـ ذي اسـ تمر ثنتـ ين وتسـ عين سـ نة تحـ ت سـ يطرة النصـ ارى الحاقـ دين, وضربت جيـ وش الناصر صلاح الدين الحصار المحكم على بيت المقدس واستمر حصارها.

وتذكر كتـ ب التـ اريخ أن صـ لاح الـ دين عنـ دما سـ ار إلـ ى بيـ ت المقـ دس وصـ لته رسالة من أحد المأسورين في القدس فيها أبيات على لسان المسجد الأقصى:

كـ الـ	ذي	لبان نكـ	س
كـ ظلام	ة	ت المقـ	دس
اجد طهـ	رت	رفي مـ	نجس[3]

وبعد اشتداد الحصار على النصارى طلبوا الأمان في أن يمتلك بيت المقدس يترفق السلطان وذل ذلاً عظيمًا فأجابهم صـ لاح الـ دين ودخـ ل المسـ لمون القـ دس

(1) انظر: الروضتين (78/2).
(2) انظر: الروضتين (ج78/2).
(3) انظر: صلاح الدين بطل حطين, لعبد الله علوان, ص (75).

ووفوا بالصلح المضروب مع النصارى، وشرعوا في تنظيف المسجد الأقصى مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وأعيد على ما كان عليه زمن المسلمين، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد والمسك الفاخر، وأبرزت للناظرين، وكانت مستورة مخبوءة عن الزائرين، ووضع الصليب عن قبتها وعادت إلى حرمتها، ولما تسلم السلطان صلاح الدين على بنات الملوك ومن معهن من النساء والصبيان والرجال، ووقعت المسامحة في كثير منهم وشفع في أناس كثير فعفا عنهم، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر, ولم يأخذ منه شيئًا يقتنيه ولا يدخره, وكان رحمه الله كريمًا مقدامًا شجاعًا حليمًا[1], وكان ذلك في بيت المقدس فقال: «لما تطهر بيت المقدس مما فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان والقسوس، ودخله أهل الإيمان ونودي بالأذان وقرئ القرآن ووحد الرحمن، كانت أول جمعة أقيمت في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فنصب المنبر إلى جانب المحراب، وبسطت البسط وعلقت القناديل وتلي التنزيل، وجاء الحق وبطلت الأباطيل، وفرشت السجادات وكثرت السجدات وأقيمت الصلوات، وأذن المؤذنون، وخرس القسيسون، وزال البؤس، وطابت النفوس، وأقبلت السعود، وأدبرت النحوس، وعُبد الله الأحد الذي +لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" [الإخلاص: 3،4].

وكبره الراكع والساجد، والقائم والقاعد, وامتلأ الجوامع، وسالت لرقة القلوب المدامع, ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال, ولم يكن عيَّن خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحي وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليوم خطيبًا، فلبس الخلعة السوداء وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة, وذكر فيها شرف بيت المقدس, وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات, وما فيه من الدلائل والأمارات, وقد أورد الشيخ أبو شامة الخطبة في الروضتين بطولها وكان أول ما قال: +فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" [الأنعام:45].

ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: الحمد لله معز الإسلام بنصره, ومذل الشرك بقهره, ومصرف الأمور بأمره, ومديم النعم بشكره, ومستدرج الكافرين بمكره, الذي قدر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره, وإعزازه لأوليائه ونصره أنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر إجهاره, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد, شهادة من طهر بالتوحيد قلبه, وأرضى به ربه, وأشهد

(1) انظر: صلاح الدين بطل حطين, ص (75).

ا عبدأن محمو رسو ولـه را ع الش كر وداح ض الش ورك وإف ض الإف ك لظل, ذي سري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به منه إلى السموات العلى, إلى سدرة المنتهى +عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى", +مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى" [النجم: 15،17]. وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن, أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك, ومكسر الأصنام, وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان»[(1)].

واستمر في خطبته الرفيعة المنيعة الممزوجة بالعاطفة الجياشة والمشاعر والأحاسيس المحبوسة ... المعجزات النبوية, والوقعات البدرية, والعزمات الصديقية, والفتوحات العمرية, والجيوش العثمانية ... اليرموكية ... أفضل الجزاء, وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء, وتقبل الله منكم ما تقربتم إليه من مهراق الدماء, وأثابكم الجنة فهي دار السعداء, فاقدروا – رحمكم الله – هذه النعمة ... بتخصيصكم بهذه النعمة ... الخطبة.

وبعد أن تم هذا الفتح العظيم توافد إلى السلطان الشعراء والعلماء والكتاب والمؤرخون ... الطوال, وإليك ما قاله الشاعر أبو الحسن بن علي الجويني:

ء لهذا الملك أعوان يهم فهذا الفتح برهان
ح فتوح الأنبياء وما ... كر بالأفعال أثمان
د حت، الفرنج الصليبي ... عفوا ... ا هانوا
لعون عام الله تصح ... اره صوم وعميان
ى صلاح الدين دعوتهم ... و للمعوان معوان
. وان العباد فما ... يُر صلاح الدين ديوان[(3)]

وقال محمد بن سعد نقيب الأشراف بالديار المصرية:

(1) البداية والنهاية (ج346/12).
(2) انظر: صلاح الدين بطل حطين, ص (78).
(3) المصدر السابق, ص (79،78).

ری امنغيَّة ي أبصد ر تح والفرنج كسد ة ثَ رُ
ي القيد د مصد فود ولد م يُ م مليد ك يؤسد ر
فَ الشهد ارم والقلَ دس الـ ذي ة للأذ ام المحشد ر
الصد ديق أذ ت لفتحد ا ر الإم ام الأ ر
ان الشد ريعة بعد ده نصد ر النبد وة حيد در [1]

وكانت بنود الصلح التي تمت بين صلاح الد دين والنصد ارى: أن يسد مح لهد م بـ الخروج لمد دة أربعين يوماً, على أن يدفع الرجل مـ نهم عشد رة دنانير, والمرأة خمسد ة, والولد اثنين, ومن لم يستطع ذلك فهو أسير»[2].

إلا أن السلطان صلاح الد دين تجد اوز بنـ د المعاهد دة وعامد ل الصد ليبيين معاملد ة عطد ف ورحمد ة وإحسان, وسلك المسد لك الذي سلكه المعتدون من قبل اة المعتدين, ي للبغ لمين تبدين الظ المين والصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين النموذج الطيب والقدوة الصد الحة فـ ي السماحة والعدل والعفو عند المقدرة.

فـ أعطى للنصد ارى الذين لم يجد دوا مـ ن يبيع نهم العاجزين أمد راؤهم ولد م يجد دوا مـ ن يبيع نهم أعطاهم أموالاً ودواب لتحمل أثقالهم إلى ما يريدون.

وكانت إحدى نساء ملك مـ ن ملد وك الـ روم قـ د ترهبد ت واسد تأذنت للـ ذهاب إلـ ى زوجها والمكث معه فإذن لها وسيرها إلى زوجها السجين للبقاء معه بقلعة نـ ابلس واجتمعد ت مجموعد ة مـ ن النسد اء وتوسلن للسلطان فـ ي أزواجهـ ن وأبنـ ائهن, فرق لهن, وأمر بالإفراج عنهن, ومنح الفقد راء بـ اب الخد روج من دون دفـ ع جزيـ ة, وذكر كتاب الغرب من أمثـ ال «سـ تيفن سـ نهسـ» «تانلي لـ ين بـ ول» الشـ يء الكثيـ ر في بر وإحسان صلاح الدين بالنصارى.

وأذن السلطان صد لاح الـ دين لرجـ ال الـ دين والنـ اس كافة أن يحملـ وا معهـ م مـ ا شـ اؤوا مـ ن المتـ اع والأموال, فأخذوا مـ ا شـ اؤوا دون أن يعترضـ هم معتـ رض, تاركين ما لا قبل لهم بحمله, فابتاعه المسلمون منهم.

وكان أحد البطارقة قـ د خـ رج بأموالـ ه وذخـ ائر كانـ ت كثيـ رة جداً دم يصد رفها فـ ي فداء الفقراء والمساكين, فقيل للسلطان: «لم لا تصد ادر هذا فيمـ ا يحمـ ل وتسـ تعمله فيمـ ا يـ تقوى به أمـ ر المسـ لمين؟» فقال لهـ م: «لا أخلف الأمان منـ ه غيـ ر العشـ رة الـ دنانير, ولا أغدر به»[3].

---

(1) المصدر السابق, (79).
(2) انظر: صلاح الدين بطل حطين, ص (79).
(3) نفس المصدر السابق 83.

أما معاملة النصارى الحاقدين للمسلمين عندما انتزعوا القدس أيدينا في عام 492هـ فإليك ما قاله «مل» المؤرخ الإنجليزي: «كان المسلمون يقتلون في الشوارع والبيوت, ولم يكن للقدسيين ملجأ يلجأ إليه من نتائج النصر, فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار, وانزوى البعض الآخر في القصور والأبراج وحتى في المساجد, فلم يخفهم ذلك من أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا, ثم يقول: «وإن دفع المشاة والفرسان ورائهم ساقطين في وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات ومشاكل, كراته أولئك المنتصرون فوق أكوام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى».

فهذا صلاح الدين المسلم السني الرباني يقدم للأجيال الإنسانية دروسًا في غاية الروعة والجمال نحتت في صفحات تاريخ البشرية لتدل على عظمة هذا الدين الذي أخرج للوجود مثل نور الدين محمود, وصلاح الدين الأيوبي فعليهم من الله المغفرة والرحمة والرضوان, قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

إني وصلت في دراساتي للشخصيات الإسلامية أنه ما ظهر قائد رباني وحقق انتصارات ميدانية وإنجازات كفرية إلا كان خلفه علماء وفقهاء يوجهونه ويرشدونه نحو الرأي السديد, وهذا ما حدث لصلاح الدين حيث كان اهتمامه بالعلماء والفقهاء عظيمًا, إلا أن هناك عالمًا وفقيهًا وأديبًا له أثر واضح في حياته لابد من التعريف به ألا وهو:

أ- القاضي الفاضل:

قال الذهبي في ترجمته: «المولى الإمام العلامة البليغ القاضي الفاضل محي الدين, يمين المملكة, سيد الفصحاء, أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن المفرج, اللخمي, الشامي, العسقلاني المولد, المصري الدار, الكاتب, صاحب ديوان الإنشاء الصلاحي, ولد سنة 529هـ[1].

قال عنه العماد الأصبهاني: «قضى سعيدًا, ولم يبق عملاً صالحًا إلا قدمه, ولا عهدًا في الجنة إلا أحكمه, ولا عقد بر إلا أبرمه, فإن صنائعه في الرقاب, وأوقافه متجاوزة الحساب, لاسيما أوقافه لفكاك الأسرى, وأعان المالكية والشافعية بالمدرسة,

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (ج338/21، 339).

والأيتام بالكتاب,وكان للحقوق قاضيًا, وفي الحق ماضيًا, والسلطان له مطيع ا م ع افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه, ومقاليد غناه وغنائه, وكنت م ن حس ناته محسو بًا, وإل ى الأذ ه منسوبًا, وكان كتائب ه كتائ ب النص ر, وبراعت ه بارع ة ال دهر, وبراعت ه بارية للبر, وعبارته نافثة في عقد السحر, وبلاغته للدولة مجملة, وللمملك ة مكمل ة, وللعص ر الصلاحي على سائر الأعصار مفضلة, نسخ أساليب الق دماء بم ا أقدم ه م ن الأس اليب وأعربه من الإبداع, ما ألفيته كرر دعاء في مكاتبة, ولا ردد لفظًا في مخاطب ة إل ى أن قال: فإلى من بعده الوفادة؟ وممن الإفادة؟ وفيمن السيادة؟ ولمن السعادة؟ (1).

ومدحت ه الش عراء عل ى حس ن ت دبيره وآرائ ه الناف ذة, وعقل ه ح ل ى ح المعضلات الت ي تتع رض لهم ا دول ة ص لاح الدين والمجتهدين, وإده ف ي الص يام والقي ام وحبه للعلم, وتواضعه وحلمه وجوه وكرمه وإنفاقه وجهده, ومال في ه هب ة الله ب ن سناء الملك:

ه إل ى أبواب	ه	ى إل ى أبوابه ا
دنيا بس ائس ملكه	ا	ه ودارس كتابه ا
ا علامه	ا	ابه ذالها وه ا (2)

ركن إليه السلطان صلاح الدين ركونًا تامًا, وتقدم عنده كثيرًا.

وك ان محافظًا ع ه الله بالكتاب ة وبالكتاب اشب أيضًا, وال دين والعف اف, والمناظرة, والمواظب ة عل ى أوراد اللي ل والص يام والت لاوة, وملك أم د ال دين مص ر, أحض ره فأعجب ه بم ا استخلصه ص لاح ال دين لنفسه وكان قليل الل ذات كثي ر الحسنات, دائم التهجد, يشتغل بالتفسير والأدب, وكان قليل النح و, ولكن ه ل ه درب ة قوية, وك ان في ه قليل الطعام ومنكح ه وملبس ه ولباسه ي له اليك, ولكن كث ر م ن تش ييع الجن ائز وعي ادة المرضى, وله معروف ف ي الس ر والعلانية, ضعيف البني ة رقي ق الصورة(3).

قال في حقه السلطان صلاح الدين: «لا تظنوا أني ملكت ال بلاد بس يوفكم, ب ل بقلم الفاضل»(4).

وقال في مدحه العماد الأصبهاني:

ود س كينة ورأي	ت	مس فضيلة ووردت بح ر فواض ل
س حبان البلاغ ة ابحًا		ار لوائ ل

(1) المصدر السابق (ج340/21).
(2) المصدر السابق (ج341/21).
(3) انظر: سير أعلام النبلاء (ج343/21).
(4) النجوم الزاهرة (ج157/6).

افة والفصد احة ـة والحماسد ة والتق ى والنائ ل

ـ ن الفض ل الغزيـ ر خض مه وم ا ل ه م ن س احل

م يعج ل جري ه ن أج ل ورزق عاج ل

ا ف رت قَسِّيَ الفصد احة ي ف قَبْلَقَ ل [1]

وعندما طلب القاضي الفاضل من السلطان صلاح الدين أن يع ين بدل ه عم اد الدين الأص بهاني ليح ل ت راجم الأقق الحلم, ه ص لاح ال م ديبان ي عن ك مندوحة, أنت كاتبي ووزيري, وقد رأيت علي وجهك البركة فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس[2]. واتفقا أن يقوم عماد الدين الأصبهاني بالقاض ي عن دما يغي ب القاضي الفاضل.

ق ال ص احب النج وم الزاه ل فض الفاض ل وبلاغت ه أش هر م ن أن ي ذكر ومن شعره قوله:

ادة لاحظت ك عيونه ا له ن أم ان

ـ به ا العنق اء فه ي حبائ ل لج وزاء فه ي عن ان [3]

إن القاضي الفاضل -رحمه الله- كان موضع ثقة صلاح الدين ومحل أسراره واستشارته فلا يقطع أمرًا دونه[4], فكان يستشيره في المهمات الكبيرة خاصة, بل كان يقول العماد الأص بهاني الكات ب عنـه: «ه لطانه مط اع والس لطان ل ه مطي ع, وهو صاحب القريحة الوقادة والبصيرة النفاذة»[5].

وهو الذي كتب لصلاح الدين وهو محاصر لعكا يخوفه من الذنوب ويحـ ذره من أن يظلم الجنود أحدًا فيكون سببًا للهزيمة, يقول ابن كثير رحم ه الله ف ي ذل ك: «وكان القاضي الفاضل بمصر يدير الممالك بها ويجهز للسلطان م ا يحت اج إلي ه من الأموال, وعمل الأسطول والكتب السلطانية, فمنها كت اب ي ذكر في ه أن س بب هذا التطويل في الحصار كثرة الذنوب, وارتكاب المح ارم ب ين الن اس, فإن الله لا ن ال م ا عن ده إلا بطاعته, ولا يف رج الش دائد إلا ب الرجوع إلي ه, وامتث ال أم ره, فكيف لا يطول الحصار, والمعاصي في كل مكان فاشية, وقد ص عد إل ى الله منه ا ما يتوقع بعده الاستعاذة منه. ومنها كتاب يقول فيه: إنما أتينا من قب ل أنفس ناو لو

(1) المصدر السابق (ج73/6، 74).
(2) المصدر السابق (ج74/6).
(3) النجوم الزاهرة (ج157/6).
(4) البداية والنهاية (ج340/12).
(5) الروضتين (ج241/2).

صدقنا لعجل الله لنا عواقب ما نرجوه، ولكنا أطعناه لما عاقبنا بعد ما وعدنا، فلعلنا مما نقدر عليه من الأعمال لا نقدر عليه إلا فضل يختص به أحد إلا نفسه وعمله ولا يجري إلا بغير ما يخرج إلا رجا بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان الذي يعتمد عليه، هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها وإنما النصر من عند الله ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللطف منه، نستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق.. إلى أن قال ابن كثير فيها: «وقد أورد الشيخ شهاب الدين صاحب الروضتين ها هنا كتبًا عدة من الفاضل إلى السلطان صلاح الدين، فيها فصاحة وبلاغة ومواعظ وتحضيض على الجهاد رحمه الله من إنسان ما كان أفصحه، ومن وزير ما كان أنصحه، ومن عقل ما كان أرجحه»[1].

وبأمثال هؤلاء ينصر الله دينه ويسدد رمي أوليائه، وأكرم الله تعالى صلاح الدين بهذا العالم الجليل الأديب الفقيه الوزير الناصح الزاهد التقي الورع المنفق صاحب الدعوة المستجابة.

وفاته:

في سنة 596هـ لبى القاضي الفاضل نداء ربه عندما كان أحوج ما كان إلى الموت عند تولي الإقبال وإقبال الإدبار، وهذا يدل على أن لله به عناية[2].

وذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه كان بين الملك العادل أبي بكر بن أيوب والفاضل وحشة فلما بلغ الفاضل مجيء العادل إلى مصر دعا الله أن يقبضه إليه فمات قبل دخول العادل، فعندما كان العادل داخلاً من باب النصر كانت جنازة القاضي الفاضل خارجة من زويلة[3].

ب- وفاة السلطان الناصر صلاح الدين:

عندما وقفت على ترجمة صلاح الدين رحمه الله، ووصلت إلى آخر لحظات حياته ذرفت عيناي الدموع، وهزت قلبي بالخشوع، وعلمت ذلك البطل العملاق الذي كان للإسلام رمزًا ولدعوته ركيزة وللكفر قاصمًا، وفي عام وفاته في عام 589هـ ذكر التاريخ أن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، وكان يقرأ عليه القرآن وهو في سكرات الموت مر القارئ على قوله تعالى: +هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ" [الحشر:22].

---

(1) انظر: البداية والنهاية (ج361/12).
(2) انظر: سير أعلام النبلاء (ج343/21).
(3) انظر: النجوم الزاهرة (ج157/6).

فقال صلاح الدين رحمه الله وهو كذلك صحيح, فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق, فلما قرأ القارئ: +لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُـوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ" [التوبة:129] تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه, ومات رحمه الله وجعل الجنة منزله, وكان له من العمر سبع وخمسون سنة, ثم أخذوا في تجهيزه وحضر جميع أولاده وأهله, وتولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعي, وكان الذي أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال, هذا وأولاده الكبار والصغار يتباكون وينادون, وأخذ الناس في العويل والانتحاب والدعاء له والابتهال ... ثم أخرج بعد صلاة الظهر ... في تابوت مسجى بثوب ... وصلى الناس عليه ... ثم دفن في داره بالقلعة المنصورة, ثم شرع ابنه في بناء تربة له ... ودفن فيها ... إن هذا الذي يحضر بين يدي الله في الجنة ... القاضي الفاضل وتقاوا ... في يوم القيامة ... يتوكل عليه, حتى يدخل الجنة إن شاء الله[1].

لقد وقع نبأ موت صلاح الدين على المسلمين وقع الصاعقة للصدمة الفادحة, والمصاب الجلل, إذ القاضي ابن شداد يصف لنا ذلك المشهد المريع إذ يقول: «ولم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وغشي القلعة والبلد والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى, وبالله لقد كنت أسمع الناس أنهم يتمنون فدا من يعز عليهم بنفوسهم, وكنت أتوهم أن هذا ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم, فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل الفداء لفدي بالأنفس»[2].

لقد كان صلاح الدين -رحمه الله- قائدًا ربانيًا تربى في أجواء علمية راسخة في زمن نور الدين, والتي تبنت في عهده فأخرجت هذا الأنموذج الرفيع الذي أعاد الله به للأمة عزتها وقوتها.

ج- الملامح الرئيسية في شخصية صلاح الدين:

أولاً: تقريبه للعلماء واحترامهم واستشارتهم وإعطاؤهم المكانة اللائقة بهم, وتحيطه المدارس ... العلم, بل إن السلطان صلاح الدين يذهب إلى الإسكندرية مصطحبًا ولديه علي وعثمان لحضور مجلس الحافظ السلفي, والكمال ... الشهرزوري إلى ... ومن ... نجم الدين ... الواعظ ابن نجا الحنبلي, ووزيره القاضي الفاضل من أكابر الكتاب ... وأهلهم, ونجم الدين الخبوشاني, والفقيه ... الشافعي, جمع صلاح الدين على إنهاء الدولة

[1] انظر: البداية والنهاية (ج5/12).
[2] انظر: النجوم الزاهرة (ج52/6).

العبيدية وقطع الخطبة لهم, وبنى صلاح الدين مدرسة وفوض تدريسها إليه, ومن الفقهاء الأمراء الفقيه الهكاري «كان جنديًا شجاعًا كريمًا فقيهًا, تفقه على الشيخ أبي القاسم البرزي واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه, وكان يخالط صلاح الدين بما لا يقدر عليه غيره, توفي وصلاح الدين محاصر لعكا»(1).

وكان إذا زاره عالم اهتم به جدًا, وكان لا يكتفي حتى يزوده بالمال والأمتعة له ولجيرانه وأقربائه.

إن هذه الانتصارات العظيمة لا تكون إلا بوجود مثل هذا التلاحم والتعاطف بين الأمراء والعلماء, وقال القاضي ابن شداد: «كان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة, وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا»(2). وكان آل المقدسي الحنابلة لهم حضور في الصالحية في دمشق أبو عمر بن أحمد بن قدامة وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني والشيخ العماد, كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج صلاح الدين فيها, وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها»(3).

إن القادة الذين يحترمون العلماء والفقهاء في حقيقة عملهم هذا قد أخذوا بسنة من سنن التمكين والنصر والغلبة على الأعداء.

الذين يهاجمون علماء الأمة ومفكريها وساستها ومربيها وفقهاءها ومحدثيها وحركييها يخدمون المخططات اليهودية والنصرانية والطاغوتية والاستخبارية سواء شعروا بذلك أو لا, والذين لا يزالون يطعنون في علماء الأمة بفعلهم هذا يكونون قد ابتعدوا عن منهج أهل السنة والجماعة الذي يقول: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل, ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل»(4).

ولقد رأيت من يستهزئ بالعلماء والفقهاء والمحدثين والدعاة, بل بعضهم كفر بعض قادات الحركات الإسلامية بدون بينة ولا حجة, وعند أولئك استخفاف, وبعضهم يتلذذ بغيبة العلماء والطعن فيهم, ونشر ذلك على المنابر وفي الصحف, ولو أتيحت له الإذاعة لهذا الغرض لطار فرحًا, ولا يدري المسكين أن لحوم العلماء مسمومة, وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة, ولا يدري هذا المتعالم أن الاعتبار في الحكم على الأشخاص بكثرة الفضائل, قال ابن القيم رحمه الله: «ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعًا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار

(1) وفيات الأعيان (ج497/3).
(2) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص (94).
(3) انظر: البداية والنهاية (ج39/31).
(4) شرح الطحاوية (ج740/2).

حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل مأجور لاجتهاده, فلا يجوز أن يُتبع فيها, ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين»(1).

إن تاريخ الأمة الإسلامية المجيد يبين لنا أهمية احترام العلماء والدعاة وتقديمهم في إعزاز هذا الدين, فعلى العاملين لإعادة ماضينا المجيد وعزنا التليد أن يعملوا على إعادة زمام الناس بأيدي العلماء والفقهاء, مع احترامهم, ولا نسمح لأحد في صفوفنا للطعن في علمائنا بالأقوال المزخرفة والأساليب الملتوية للضحك على شبابنا حتى لا يفلحوا في دنيا ولا في آخرة.

ثامنًا: الملامح الواضحة في شخصية صلاح الدين شغفه بالجهاد: قال القاضي ابن شداد رحمه الله: كان رحمه الله عظيم المواظبة على الجهاد, عظيم الاهتمام به, ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارًا إلا في الجهاد, وفي الإرفاد لصدق, وبر في يمينه, ولقد كان الجهاد قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا, بحيث ما كان له حديث إلا فيه, ولا نظر إلا في آلته, ولا اهتمام إلا برجاله, ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه, ولقد هجر في محبته الجهاد أهله وولده ووطنه وسكنه وسائر بلاده, وقنع بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة, وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد, ولقد سرنا مع السلطان على الساحل نطلب عكا وكان الزمان شتاءً عظيمًا, والبحر هائج موجه كالجبال, وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم عندي, واستخففت رأي من يركب البحر, بينما أنا في ذلك إذ التفت إليَّ وقال في نفسي أنه: متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد, وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت, فعظم وقع هذا الكلام عندي وحكيت له ما خطر لي, فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها, وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها, اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه, ولقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس, وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر, وهو صابر على شدة الألم ويقول: إذا ركبت يزول عني الألم حتى أنزل»(2).

إن في زماننا هذا اندفاعًا عظيمًا نحو ساحات الجهاد, وخير شاهد على ذلك ما حدث في أفغانستان, وما نسمعه من تضحيات عظيمة في الأرض المحتلة, إلا أن في بعض بلاد المسلمين من يشرف على الحركات الجهادية لذا تنقصهم

(1) أعلام الموقعين (ج283/3).
(2) الروضتين (ج222،221/2).

خبرات كثيرة من فهم لسنن الله في تغيير الشعوب والمجتمعات, والأهم من ذلك معرفتهم في دين الله ضعيفة, وخصوصاً السياسة الشرعية وأحكام الدماء والأعراض والأنفس, وإلى تربية الشعوب حتى تتهيأ لتصبح مجاهدة, وشدة إعجاب بعض الفتاوى والأحكام التي لها أدلة في قراءة كتب تخدم غرضهم, واهتموا بتربية الشباب عليها, وأقحموا أتباعهم في معارك خاسرة ضد حكوماتهم في صراع عنيف ينتهي بقتل بعضهم, وسجن آخرين منهم ومن غيرهم, وتشريد آلاف من المسلمين, وتسببوا في تعطيل مشاريع دعوية تربوية, فعلهم هذا فيه تجاوز من عدة أمور:

أولاً: ولاية الجهاد حق الأمة ليس حق أفراد أو جماعات وتقرره الأمة بواسطة أهل الحل والعقد من الفقهاء والعلماء الذين تختارهم, ويسبق هذا مجهود تربوي وعلمي وفقهي في أوساط الشعب لتعريفهم بحقيقة دينهم, واستضافة البيان, ويكون تحت إشراف العلماء والفقهاء, فإن كان الشعب الذي نتكلم عنه لا علماء وفقهاء فلابد من دفع مجموعة من أبنائه للتفرغ لطلب العلم وأخذه من أهله, ممن شهدت لهم الأمة أنهم أهل لذلك حتى يتهيأوا للإشراف على العمل الجليل, حتى تجد الأمة من ترجع إليه في مشاكلها العظيمة, ويأخذ بيدها نحو تحكيم شرع الله بسنة الله في التدرج, وخصوصاً في عصرنا هذا الذي تموج فيه الفتن.

فالأمور العظيمة كالجهاد في سبيل الله تعالى مردها إلى أهل العلم والبصيرة النافذة, قال تعالى: +وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً" [النساء:83], لا إلى من قضى عمره في الهندسة المعمارية أو الصناعية أو الهندسة, أو يقضي عمره في دراسات الجراحات الطبية أو غيرها, فهم ليسوا من أهل الفن, ومن الكتب فحفظها وفهمها على حسب فهمه المحدود, ولا إلى حركات الإسلامية صاحبة الفهم التي لم يشرف على تأسيسها وحركتها علماء وفقهاء شهدت لهم الأمة بعلمهم وإخلاصهم وصدقهم, ولا الرجوع إلى من عاش في متابعة الجرائد والإذاعات وتتبع سقطات الدعاة, وتتلمذ على كتب حرب العصابات مثل ماوتسي تنج في الصين وجيفارا في أمريكا اللاتينية, والبعد عن قيادتنا العظيمة أمثال نور الدين وصلاح الدين, وقبلهم الرسول والمرسلين وأصحابه الميامين الطيبون وأراد أن يدفع بشباب الأمة نحو أهدافه التي رسمها.

قال الشيخ العلامة ابن سعدى -رحمه الله- في تفسيره للآية المذكورة: «هذا تأديب من الله لعباده على فعلهم غير اللائق, وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من

الأمور المهمة والمصالح العامة مما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو الخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا ما فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته أكبر من مصلحته لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة مهمة وهي: إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يوكل إلى من هو أهل لذلك، ويُجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم فإنه أقرب للصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه»[1].

إن قضايا الجهاد والسياسة الشرعية ما كان يفتي فيها إلا العلماء الراسخون في العلم والمعرفة، وذوو الفقه وأصوله، بحث لهم دراية بمقاصد الشريعة والموازنة بين المصالح والمفاسد والأدلة التفصيلية ولا يمكن لشباب في مقتبل العمر قضى ساعات أوقاتهم في القيل والقال، ولم يجلسوا في حلقات العلم، وأخذوه عن شيوخه أن يفتوا في أمور الجهاد التي تزهق فيها الأرواح، وتنفق فيها الأموال ويتعدى فيها على الأعراض.

بعد الدرس العميق لسيرة المصلح الجهادي صلاح الدين يتبين لنا أن الذين كانوا يفتون في زمانه هم العلماء الذين فهموا الشريعة ومقاصدها، واستوعبوا الموازنة بين المصالح والمفاسد، وواقعهم الذي عاشوا فيه، وتفننوا في معرفة المصالح والمفاسد.

وأنصح إخواني أبناء المسلمين أن لا ينغروا بما أوتي جدلاً باللسان ولم يُشهد له بأنه من أهل الفتوى، وأن لا يأخذ الإنسان دينه إلا ممن شهدت لهم الأمة بالعلم وعرفوا بالحرص عليه، وصبروا على أخذ العلم، وماتوا على أيدي العلماء، لأن الدين وفهمه عظمك ولحمك فانظر عمن تأخذ دينك فلا تأخذه من النكرات الذين أخذوا بعض ثقافاتهم من الصحف والأوراق واعتزوا بعقولهم وتفاخروا بنفوسهم.

من العلم الشرعي علم يؤخذ بالتلقي فلا يجدي الأخذ من الكتب فقط، بل الاقتصار في التلقي على الأخذ من الكتب بلية من البلايا، كذا اجتماع الشباب والطلبة على التدارس دون أخذ عن شيخ عالم عامل.

---

(1) تفسير السعدي (ج2/54، 55).

يقول الإمام الشافعي -رحمه الله-: «من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام»[1].

وكان بعض السلف يقولون: «من أعظم البلية تشيخ الصحيفة»[2].

ى علماء الأمة على مر العصور والأزمان لا يرفعون فوق رؤوسهم الرايولايات, دعون إلى شد ولايطات, البون الناس بالانتماء إليهم, ا يط البون الناس بالانتماء إلى سنة سيد المرسلين, ×ك أخي أن تكون مثل الخوارج الذين تركوا أهل العلم والفضل من الصحابة, وتابعوا الأعراب الذين لا جيدون إلا الخطابات الحماسوتية, أجيج العاطفة, حرص على الموثوق في دينه وعلمه:

«فإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»[3].

إن جيل صلاح الدين قادة وجنودًا, جماعات وأفرادًا, فهموا معنى قيمة العلم وممن يؤخذ, أعطوا الفتوى لأصحابها, العلماء الربانيون سياسة الأمة فقطعوا بها المراحل, دافع الجميع نحو مرضاة الله, وزراء وقواد وسلاطين وعلماء, فأصبح شغفهم بالعلم والعلماء واضحًا معلومًا, حرصهم على الجهاد وتفجير طاقاته شيئًا ملموسًا من سيرتهم, إن الجهاد حق الأمة وليس حق الأفراد, م وثقة بالإرادة الأف حول أهل الحل والعقد الذين تقدمهم الأمة, ويس مجموعة من الأفراد يطعنون فيمن يخالفهم.

ثانيًا: من السمات الشخصية في صلاح الدين حرصه على العدل, وكان الأمراء والوزراء من قبل يتسلطون على الناس في أموالهم وأراضيهم, والملوك يسمحون لهم بذلك إرضاءً لهم وحتى تبقى طاعتهم.

ثالثًا: زهده في الدنيا ولذلك لم يخلف أموالاً ولا أملاكًا, وجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم, وحتى إلى أعدائه, وكان متقللاً في ملبسه ومأكله, ومركبه, وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف.

رابعًا: كان مهتمًا بالعلوم في اللغة والأدب وأيام الناس, وكان يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام.

خامسًا: كان مواظبًا على الصلوات في أوقاتها في الجماعة, يقال: إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل, حتى ولا في مرض موته, كان يدخل الإمام فيصلي به, وكان يتجشم القيام مع ضعفه.

سادسًا: كان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع القرآن الكريم, والحديث الشريف.

سابعًا: كان حسن الوجه كثير البشر, ... ر يفعله, ديد

(1) ابن جماعة, تذكرة السامع ص (87).
(2) المصدر السابق ص (87).
(3) مقدمة صحيح مسلم (ج14/1).

المصابرة على الخيرات والطاعات[1].

فرحمة الله على أمثاله وأعلى ذكره في الصالحين.

د- من أروع المراثي في صلاح الدين الأيوبي رحمه الله

قال العماد الأصبهاني رحمه الله: «دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في زيادة, وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب, انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء, ومات بموته رجاء الرجال, وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال ورثاه الشعراء»... إلى أن قال العماد الأصبهاني مرثيته المشهورة:

الم ك ع م ش تاته وأقلع ت حس ناته

ر المل ك ال ذي ة ه

ل م ي ذل مخش ية ه وهبات ه

ت ل ه طاعته ا ه طاعات ه

م ا زال س ا للطائ ا يُ داه وتتق ى طواته

ش رف الزم ان بفض له ى الفض لاء تش ريفاته

س بوا م ن ات شخطوًاح دًا ع المين مماته ه

ل الإس لام ك ان محاميًا اذا أسَّ ماته لمته حُ ه

ذ غ اب عن ا دوره ن ب دره داراته ه

لُ يس تنش ر بع دما وم النش ور رفاته ه

ي المظف ر يوس ف ورود ه

والأرام ل راح مُ ة صد دقاته

ي عص ر النب ي لأنزل ت ن ذك ره آياته ه

س وارم والص واهل إذ خل ت وبه ا عزماته ه

ة الإس لامن تمكن ت ب م ؤمن روعاته ه

ا الدلعيًّ دين تمكن ت ذئاب وأس عائلمته رُ ه

(1) انظر: ابن كثير, البداية والنهاية (ج6/12،7).

. رك لـ و أقم ت مراعياً ا ديدً رحل ت ولاتـ ه

ا غيت ملكاً ر بـ اق مُتعباً ا لت ملكاً ا وإقيّاتـ ه [1]

د ع داها حفظ ه لـ م تع ه

ع عصر ر ه لم ا انقض ى نواته سـ اعاته

لاح الـ دين يوسـ ف دائماً ا ضوان رب العالمين بل صـ لواته [2]

هـ- من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين:

قال صاحب النجوم الزاهرة: ولما مات السلطان صلاح الدين كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها:

+لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" [الأحزاب:21], +إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَـــيْءٌ عَظِيمٌ" [الحج:1].

كتبتُ إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله ع زاءه وجبر ر صُد ابه وجعل فيه الخلف للملك في الموحد وقد زلزل المسلمون زلزالاً عظيماً, وقد حفرت الدموع المحاجر, وبلغت القلوب الحناجر, وقد قبلت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده, وقد قبلت وجهه عني وعنك, وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة ضعيف القوة راضياً عن الله, ولا حول ولا قوة إلا بالله, وبالباب من الجند والمجنة والأسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء, ولا ما يرد القضاء, وتدمع العين ويخشع القلب, ولا نقول إلا ما يُرضي الرب, وإنا بك يا يوسف لمحزونون, وأما الوصايا فما يحتاج إليها, والآراء فقد شغلني المصاب عنها, وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم, وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته, وهو الهول العظيم والسلام» [3].

فرحمة الله على صلاح الدين ومن قبله من السابقين ومن بعده من المسلمين الذين أخذوا بسنن التمكين.

قد يتساءل القارئ لماذا هذا الإطناب في سيرة صلاح الدين ونور الدين؟ وجوابي على ذلك أن الدولة العبيدية لها أسباب مباشرة في السقوط وأسباب غير مباشرة, وفي رأيي أن من أهم الأسباب في زوال الدولة العبيدية جهود القائدين العظيمين نور الدين محمود وصلاح الدين؛ ولذلك أطنبت في سيرتهما

(1) النجوم الزاهرة (ج6/60،61).
(2) صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس, ص 102.
(3) النجوم الزاهرة (6/52،53).

العطر توضيح أهم أسباب النصر التي التزم بها وأخذ بها وإظهار الجهود العلمية والتربوية والفقهية التي قام بها العلماء في عصرهم وعصر من سبقهما, ليصل القارئ الكريم الى الحال دين وذ ور الدين لا يأتي ان فجأة دون جهود وتبذل من قبل أفراد الأمة وجماعاتها وعلمائها ودعاتها, وليعلم القارئ أن التغيير لا يحدث في الأمة إلا إذا سبقه حرص جماعي على الأخذ بيعلى أهمية معرفة أسباب النصر وعوامل الهزيمة وأهمية مزج الإخلاص في النية بالصواب في التفكير والعمل, لا غنى لأحدهما عن الآخر.

وبهذا أكون قد انتهيت من كتابة الدولة العبيدية في الشمال الإفريقي.

فإن أصبت فمن الله وحده, وإن أخطأت فمن نفسي وتقصيري.

أسأل الله أن يكون عملي خالصًا لوجهه الكريم, وأن تنتفع به أجيال المسلمين.

* * *

نتائج البحث

1- عندما تكون الأمة قوية يلجأ أعداؤها إلى لباس ثوب الدين ليسهل لهم تفتيتها ونخرها من الداخل وخصوصًا اليهود, ويتقنون رفع الشعارات المزيفة والكاذبة لخداع عوام المسلمين, وهذا ما فعله الزنديق اليهودي الحاقد عبد الله بن سبأ وهو أول من بذر بذرة الرافضة في الأمة باسم التشيع ومناصرة أهل بيت النبوة.

2- إن أهل البيت رضوان الله عليهم وخصوصًا علماءهم ابتداءً من الإمام علي رضي الله عنه يعتبرون من علماء أهل السنة والجماعة, وقد حاربوا بكل ما يملكون أهل البدع والابتداع في الأمة.

3- إن زيد بن علي خذله أهل الرفض لكونه امتنع عن سب الشيخين رضي الله عنهما, وهذا يدل على حقد الروافض للصحابة الكرام.

4- إن التشيع كثرت فرقه وانتشرت في بقاع الأرض وأصبحت له دول تحمي أتباعه, ومن المعلوم أن الأفكار لا تموت في الغالب وإنما يتغير أشكالها ولباسها وفق ما يحتاجه أهل كل مكان وزمان؛ ولذلك فإن بيان فرقهم التي لا زالت منتشرة وغيرت أسماءها جهاد يحبه الله ورسوله.

5- إن من أخطر فرق الشيعة في الوقت الحاضر النصيرية التي تحالفت في الماضي مع النصارى لاحتلال ديار الإسلام, يحزنون إذا انتصر المسلمون ويفرحون إذا هزم المسلمون, ولا زالت تحالفاتهم مع النصارى واليهود مستمرة ولهم دولة في سوريا أذاقوا أهل السنة فيها الويلات من قتل وسجن وتعذيب وتشريد.

6- ومن أخطر الفرق المعاصرة: الاثني عشرية التي أقامت دولة في إيران, وتتدرج في نشر أفكارها على مستوى العالم أجمع, ولا نستغرب إذا استمر أهل السنة في نومهم العميق أن يضموا الإمارات العربية وقطر والبحرين وجزءًا من العراق والسعودية, ويرون هذا التوسع جهادًا ودينًا وقربة لله.

7- إن الإسماعيلية أتقنت تنظيمها ووفرت له كل الأسباب التي تنقل التنظيم إلى حكم دولة من أسباب عسكرية, وأمور مادية, واختيار كفاءات عالية لها المقدرة على التخطيط والتنفيذ.

8- إن القيادة الإسماعيلية اختارت مكانًا مليئًا بالظلم وفيه صراع عنيف بين القبائل والدول, وأسست دعوتها بالتدريج على مراحل حتى جاء دور الماكر الخادع أبي عبد الله الشيعي الذي تدل كتب التاريخ أنه رجل دولة له مقدرات عسكرية وفكرية وظفها في تحقيق أهدافه, وعندما استطاع أن يعرف مواطن القوة في المجتمع المغربي ومواطن الضعف شرع في الأخذ بأسباب القوة وإنهاك دولة الأغالبة وزيادة ضعفها مما ساعده على إسقاطها عام 297هـ.

9- كان الناس في زمن مجيء أبي عبد الله الشيعي مهيئين للتغيير, ويبحثون عن الخلاص, ويسعون لإزالة الظلم, وتولدت نفرة عظيمة بين الأمراء والشعب في الشمال

الإفريقي.

10- إن عبيد الله المهدي عندما تقلد الحكم عمل على تصفية أتباعه المخلصين الذين أسسوا دولته, وهذا شيء ملاحظ في تاريخ البشرية, وهو ما يسمى بأن الثورة تأكل أبناءها, ولعل هذا الأمر يدخل في سنة الله الجارية: من أعان ظالمًا سلطه الله عليه, وما انتقام الرئيس العراقي من وزيره وعامله وصهره عنا ببعيد, بل جل الثورات تتعرض لهذه التصفيات.

11- إن عبيد الله استفاد من معتقد المسلمين في المهدي المنتظر وزين الأمر وزخرفه حتى أقنع كثيرًا من الناس بأنه هو المقصود.

12- إن علماء أهل السنة دائمًا عندما تشتد الظلمة ويغيب الإسلام يقومون بدورهم الريادي في إحياء الأمة, ولو كلفهم ذلك نفوسهم وأموالهم وأهاليهم.

13- إن تربية الأمة على معتقد أهل السنة والجماعة هو السياج العقدي والفكري والنفسي الذي يحميها من الدعوات الضالة المضلة.

14- إن أهالي طرابلس قاوموا المد الرافضي والمعتقد الباطني, ودخلوا في قتال عنيف معه وفي نهاية المطاف انقاد أهل طرابلس بالقوة والسلاح لدولة العبيديين.

15- لقد فعل العبيديون في أهالي برقة ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرؤوس, وثار أهالي برقة وقتلوا عمالهم وكثيرًا من رجال كتامة ولكنهم أخمدوا بالتنكيل, والتعذيب والقتل وسبي النساء.

16- استطاع أبو يزيد الخارجي أن يهز كيان الدولة العبيدية وكاد أن يقضي عليها إلا أنه لم يحقق ذلك؛ لأن عقليته لم تكن عقلية رجل دولة, ولم تكن له خطة واضحة الأهداف كما أنه غدر بحلفائه مما أفقد ثقة الناس فيه.

17- إن علماء أهل السنة اجتهدوا في مناصرتهم لأبي يزيد الخارجي إذ رأوا أنه أخف الضررين, والدرس العميق الذي نخرج به هو شدة الحذر في مثل هذه التحالفات وتقدير المصالح والمفاسد وخصوصًا عند أهل البدع الاعتقادية والأحزاب العلمانية, فالمسلم كيس فطن لا يلدغ من جحر مرتين.

18- من أسباب نجاح ثورة أبي يزيد أن القائم بأمر الله الخليفة العبيدي سب الأنبياء وأظهر كفره, فاستغل أبو يزيد ذلك وألب إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان عليه.

19- أظهر الخليفة المنصور العبيدي الإسلام وقدم الفقهاء والعلماء ورفع الظلم عنهم حتى سكنت البلاد وقضى على الخارجين عليه.

20- إن أهالي الشمال الإفريقي نفسهم طويل ولا يرضون بغير منهج أهل السنة ولهم استعداد أن يقدموا الغالي والرخيص في سبيل هذه العقيدة الصحيحة؛ لذلك اضطر خلفاء العبيديين أن يفكروا في الانتقال إلى مصر والتخلص من الثورات والاضطرابات.

21- كانت الدولة العبيدية راعية الفكر الباطني في العالم الإسلامي, وتمده بالمال والسلاح وبكل ما يحتاجه لتقويته ضد أهل السنة, وتم التعاون بين القرامطة والعبيديين إلا أنهم اختصموا واختلفوا على الدنيا.

22- اتخذت الدولة العبيدية أساليب متنوعة في القضاء على عقيدة أهل السنة وكلها لم تحقق أهدافها.

23- قاوم علماء السنة المالكية الدولة العبيدية الباطنية بالأساليب المتاحة لهم من مواعظ ودعوة وحمل سلاح ضد الطغاة الظالمين وتحملوا القتل والسجن والتعذيب.

24- استهدف علماء أهل السنة في دعوتهم الأمراء الصنهاجيين ونجحوا في إرشادهم وتعليمهم وأخص بالذكر الفقيه أبا الحسن الزجال.

25- كان الاهتمام بالمعز بن باديس مكسبًا عظيمًا لأهل السنة, وكان المعز بن باديس يتحين فرصة للانفصال عن الدولة العبيدية الباطنية, وشجع العلماء والفقهاء من أهل السنة في دعوتهم, وضايق الروافض, واستدرجهم لمعارك طاحنة للقضاء عليهم بالسيف.

26- إن الدولة الصنهاجية البربرية الزيرية تحولت في زمن المعز إلى دولة سنية وهذه بداية ضعف الدولة العبيدية, بل من أسباب سقوطها.

27- إن إلغاء المذاهب السنية وإلزام الناس بمذهب واحد ضد قاعدة الدفاع في الشمال الإفريقي, وكان الأولى للمعز أن يتبنى التيارات السنية كافة كما فعل نور الدين محمود مع كونه حنفيًا, إلا أنه قدر وقدم بقية المذاهب السنية, وكما فعل صلاح الدين مع كونه شافعيًا.

28- لقد كانت سنة الله واضحة في آجال الملوك والحكام, وكذلك قوة الأفكار التي تحميها الدول, وكم من تغيير حدث من أحفاد وأبناء من هم أعداء لمنهج أهل السنة.

29- مكرت الدولة العبيدية بالمعز بن باديس بإرسالها القبائل العربية للشمال الإفريقي, ومن أسباب انهزام المعز الصراع العنيف بين صنهاجة وكتامة وزناتة, وتركيب الجيش وارتكازه على العبيد الذين لم يتحصلوا على قسط وافر من التربية الإيمانية.

30- يعتبر عصر تميم بن المعز أفضل من والده, إذ استطاع أن يضم المدن التي انفصلت إلى دولته, ويجند القبائل العربية في جيشه وأن يهزم بني عمه أصحاب الدولة الحمادية واستمر على نهج أبيه والدعوة إليه.

31- يعتبر عصر يحيى بن تميم من أقوى العصور الزيرية خصوصًا في مجال البحر, وشن الحروب على النصارى, وإرسال الحملات الجهادية في حوض البحر المتوسط, كما أن التجارة ازدهرت ازدهارًا عظيمًا انعكس على الرعايا, واستطاع أن يسوي العرب بسياسة حكيمة.

32- في عصر الأمير علي بن يحيى بدأت الأطماع النصرانية تظهر للعيان,

وتحركت أساطيل النصارى من صقلية, للمناوشات في البحر المتوسط.

33- سقطت المهدية عاصمة الزيريين في عام 543هـ في أيدي «النصارى» حكام صقلية, وكذلك طرابلس ومدن الساحل في الشمال الإفريقي.

34- استطاع الموحدون أن يطهروا الشمال الإفريقي من النصارى وأن يحافظوا على وحدة البلاد السياسية من المغرب الأقصى إلى الحدود المصرية.

35- كان لسقوط الدولة الزيرية أسباب كثيرة من أهمها الصراع الداخلي بين صنهاجة وزناتة وكتامة, وتبع الصراع بدخول العرب حلبة الصراع مما أضعف الدولة في نواحيها العسكرية والتجارية والسياسية وغيرها, وجعل العلماء والفقهاء يهاجرون إلى المشرق أو الأندلس أو المغرب الأقصى.

36- حكمت الدولة الزيرية 180 سنة هجرية ثم انتهت وأصبحت كالأمس الغابر +لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْـــتَقْدِمُونَ" [يونس: 49] وهذا يفيدنا عبرة واتعاظًا.

37- إن كان العبيديون نجحوا في إضعاف المعز بن باديس ودولته فإن الله سلط عليهم إخوان المعز في العقيدة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي للقضاء على ملك العبيديين.

38- تكاثفت جهود الأمة لمحاربة المد الباطني الإسماعيلي, وظهر ذلك جليًّا فيما قام به السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند, والسلطان ألب أرسلان السلجوقي في بلاد الشام, من حرب العبيديين, وكان الغزنويون والسلاجقة سنيين في معتقدهم.

39- برز في الدولة السلجوقية الوزير نظام الملك «الحسن بن علي» وكان ذا صلاح وتقوى وهمة في إحياء السنة وإماتة البدعة, فوضع خطة طويلة المدى متعددة المراحل ترمي لإخراج أجيال متفقهة في الدين مستعدة للتضحية في سبيله, فأسس المدارس في ديار المسلمين في نيسابور والعراق والشام, وامتدت إلى مصر, وشجع العلماء والفقهاء على التعليم والدعوة وتفقيه الناس, ووفر للعلماء والطلاب كل سبل الراحة, وكان من أشهر العلماء في المرحلة العصيبة أبو المعالي الجويني, والإمام الغزالي وقبلهما الماوردي, وأبو إسحاق الشيرازي, فعملوا جاهدين في محاربة الرفض وإحياء السنة, وهؤلاء زعماء المدرسة الشافعية السنية التي كان لها دور ملموس في فترة نهوض الأمة من كبوتها, وتهيئتها لدولتي نور الدين محمود, وصلاح الدين.

40- ظهور علماء المدرسة الحنبلية السنية أمثال أبي الوفاء بن عقيل وأبو الفرج بن الجوزي» وتفرغهم لتعليم الناس وتربيتهم, وكان لمدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي دور ملموس في هذه الجهود, وخصوصًا بعد أن تولى أمر هذه المدرسة الداعية الرباني والعالم الجليل عبد القادر الجيلاني الذي تربى على يديه كثير من علماء الشام في بغداد.

41- بعد أن تبلورت جهود تربوية عظيمة من أشهر روادها الإمام الغزالي»

وعبد القادر الجيلاني, وبذلت جهود علمية لايُستهان بها من أشهرها ما قامت به المدرسة الحنبلية الشافعية تولد جيل واضحة أهدافه, عالية هممه, وظهر في هذا الجيل الجديد قادة ربانيون عمالقة أمثال: عماد الدين زنكي الذي بدأ في انتزاع أراضي المسلمين من النصارى والحاقدين وحلفائهم الباطنية الملاعين.

42- كان عصر نور الدين زمن تغيير للأمة وكانت معالمه وملامح التمكين ظاهرة من عدل شامل, وحب للمصلحة العليا, وتفانٍ في أداء الواجب وتكامل بين أبناء الأمة, وانصهروا جميعًا في تحقيق الأهداف العليا.

43- رأت الدولة الزنكية أن لا قوة للأمة إلا باتحاد العراق مع الشام فبدأت الدولة الفتية في توحيد أقطارها الإسلامية, ورأت بمنظورها البعيد أنه لا عزة للأمة ولا قضاء على الصليبيين إلا بالقضاء على دولة الرافضة العبيدية, فأعدوا للأمر عدته, واستطاع نور الدين أن يسقط الدولة العبيدية, وجبهة القتال الشامية المصرية وكان ذلك عام 564هـ على يد أحد أعوانه المخلصين صلاح الدين الأيوبي.

ويظهر لقارئ التاريخ أن الأمة لا تستطيع أن تدحر هجمات النصارى إلا إذا اتحد الشام مع مصر ويكون ما خلفهما من ديار المسلمين ردءًا لهما.

وأما دور الأمة الهجومي لاستمرار عجلة الجهاد والتوغل في أوروبا فلا يكون لها ذلك إلا إذا انضم الشمال الإفريقي مع بلاد الشام والديار المصرية.

44- أجادت الدولة الزنكية في إقامة شبكات أمنية على مستوى أملاكها تتبع كل التنظيمات البدعية التي تعمل على إسقاط الدولة السنية الزنكية الفتية, فكانت الدولة الزنكية تهتم بتتبع أقليات النصارى في ديارهم, وخونة أتباع العبيديين, وجعلهم تحت أعين الدولة؛ ولذلك فإن الحركات الإسلامية السنية التي تسعى للوصول للحكم من أجل تحكيم شرع الله عليها أن تهتم بمكاتبها الأمنية وتطورها بما يليق مع مستوى المرحلة التي تمر بها حتى تستطيع أن تحجم دور الجيوب الداخلية في الأمة «تنظيمات بدعية أو علمانية أو نصرانية أو يهودية» وإتقان هذا الجانب من أهم أسباب التمكين.

45- إن الدولة النورية الزنكية ما كانت تسند أمورها القيادية إلا لجنودها وقادتها المخلصين لفكرتها, ولذلك بعد ممات نور الدين محمود التقط الراية صلاح الدين, واستمر في تحقيق الأهداف المرسومة.

إن من الأخطاء القاتلة التي تمر بها الأمة أحيانًا: تتعلق بالأشخاص فإن ماتوا ضعفت وإن انحرفوا انحرفت؛ ولذلك يجب على الدعاة أن يجعلوا الأمة تتعلق بالمنهج حتى تستطيع أن تستمر في أداء وظيفتها الرسالية.

46- لابد للأمة التي تسعى لإزالة الدولة الكفرية والأحكام الجاهلية أن يمتزج فيها الجانب العلمي التربوي مع الاستعداد العسكري الجهادي, وأن تكون القيادة العليا لأصحاب العلم الربانيين, ومن ظن أن الأمة بالقوة العسكرية وحدها ترجع مجدها فقد أخطأ السبيل, وما أفغانستان عنا ببعيد, ومن ظن أن الجانب

العاطفي الجياش وحده يقوي الأمة فقد خالفه الصواب, ومن يعتقد ويظن أن الجانب العملي وحده أو السياسي وحده هو الحل العلمي فقد جانبه الصواب, وإنما الحل في الأخذ بالإسلام جملة, مع الاعتداد بأن يشمل كل المجالات التي يتناولها الإسلام من دولة ووطن أو حكومة وأمة, وخلق وقوة أو رحمة وعدالة وثقافة وقانون أو علم وقضاء, ومادة وثروة أو كسب وغنى, أو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة, كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.

وهذا الذي اهتم به جيل التمكين في زمن نور الدين محمود وصلاح الدين.

47- إن صلاح الدين الأيوبي تدرج في القضاء على الدولة العبيدية ورضي بأن يتولى الوزارة لها, وبعد ذلك أخذ يقلص نفوذ العبيديين ويظهر التوجه السني, ولم يستعجل النتائج, مع مراعاة سنة التدرج في تغيير الشعوب وإزالة الدول, كما أنه لابد من الاهتمام بالتخصص في أمور الدولة ومن التفنن في توزيع الأدوار حتى يتكامل العاملون لتحقيق أهدافهم.

48- إن صلاح الدين أمضى سلاح العفو عند المقدرة مع خصومه, فكان له أثر بالغ في كسب النفوس ومداواة الأمراض وتوحيد الصفوف والقضاء على الفتن الداخلية, فالعفو عند المقدرة عندما يكون في محله يقوي الدول ويجذب القلوب ويقضي على الخصوم.

49- عندما تمكن صلاح الدين من توحيد الجبهة الداخلية تحرك بجيوشه الجرارة لتطهير الشام من الصليبيين, وكان تحركه الميمون وفق خطة عسكرية محكمة, بدأ في انتزاع الحصون والمدن القريبة من مصر, واستدرج النصارى إلى موقع اختاره, وكانت حرب صلاح الدين الأولى هي حطين, ووجه ضربته المباركة في حطين التي كانت مفتاح القدس.

50- إن أخلاق القيادة الرفيعة تظهر في الفتوحات العظيمة, ولقد ضرب صلاح الدين أروع الأمثلة في الأخلاق والعفة والكرم والصفح في فتحه للقدس, حتى إن ملوك النصارى ومؤرخيهم أثنوا على هذه الأفعال الجميلة والأيادي الجزيلة, والفضل ما شهدت به الأعداء.

51- إن القيادة العلمية والفكرية لم تكن في يد صلاح الدين, وإنما كانت مرتكزة عند العلماء والفقهاء, ومن أعوان صلاح الدين القاضي الفاضل الذي أخذ بيد صلاح الدين نحو تطبيق شرع الله, وعندما تكون القيادة الفعلية في الأمة للعلماء الربانيين والقادة العسكريين الذين ينقادون لأحكام الله يكون النصر حليفهم, ويمكّن الله لهم ما داموا على نهجه سائرين.

52- إن الأمة تتفاعل مع قيادتها العملية التي تنزل الأفكار في دنيا الناس, وتعيش بها وتلتف الأمة حول قيادتها, وتقدم لها كل ما تملك, أما إذا كان القادة أصحاب كلام لا فعل, وعقيدتهم ميتة لا تحيي قلبًا, ولا تدفع شخصًا, وجلسوا للتنظير والقيل والقال فإن الأمة تتمزق وتتشطر وتتفرق ويعم الشتات, وهذا

ملاحظ من سيرة نور الدين محمود الذي أقام الإسلام على نفسه, ونزل بنفسه في ساحات الوغى, وكذلك في سيرة صلاح الدين وتلاميذه.

53- مهما استطال الظلم وامتد واتسع فإن نهايته لابد وأن تتمثل في فرد أو في نهاية دولة خاضعة لتقدير الله وفق سننه وقانونه في استدراج الظالمين والانتقام منهم وجعلهم عبرة لغيرهم, فأين حكام العبيديين وأين ملكهم ودولتهم؟

54- إن الجهاد عندما تقوم به الأمة كلها بقيادة أهل الحل والعقد يعطي أكله بعد حين, وعندما يتصدى لقيادة الجهاد جهال وأنصاف علماء وشباب متحمسون تكون النتائج وخيمة.

55- إنني أعتبر ما قام به صلاح الدين ونور الدين من أعمال مجيدة ثمرة لمجهود علماء وفقهاء ومربين بذلوا جهودًا عظيمة وأخرجت هذا الجيل الذي قضى على دولة العبيديين وكسر شوكة النصارى في حطين, وطهر المسجد الأقصى من أسر الحاقدين.

56- إن الاهتمام بصفات القادة الربانيين والعلماء العاملين يفيد الأمة في تربيتها الطويلة وإعدادها الجاد لعودة صولتها وجولتها في دنيا الوجود على منهج قويم وتوجيه سليم.

57- إن هذا المجهود قابل للنقد والتوجيه وما هو إلا محاولة متواضعة وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجـد عيبًا فسـدَّ الخلـــلا ... جـل مـن لا عيـب فيـه وعـــلا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الموضوع	الصفحة

* * *